ساعة حياتي

ساعة حياتي

روايـــة

ياسميـــن ماجـــد

ساعــة حياتـــي

روايـــــة

اسم الكاتبة: ياسمين ماجد
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف:
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: ١٤٩٩٩ / ٢٠١٨
طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

الفصل الأول

يتأمل السقف في سكون تام... تتحرك عيناه بتؤدة لتقع على الساعة الرملية أعلى المدفئة... يبتسم في خمول... كان الوقت ظهيرة موعد خموله المعتاد؛ فهو لا ينام، فقط يبقى في وضع ثابت حتى يأتى الليل ويخرج للصيد، والتسلية، وممارسة حياته العادية من وجهة نظره.

وحيدًا يعيش بقلعته في عالمه الهادئ... الساعة الرملية رفيقته الوحيدة؛ فقد وضعت له منذ مولده.

اعتاد أن ير اقب تسرب رمالها إلى أن توقفت، أفزعه توقفها، وكأنه لم يلحظ تسرب رمالها من قبل، كان يخالها تعيد رمالها مرة ثانية على الرغم من رؤيته للرمال تنقص، لم يرد تصديق ذلك.

هرع إلى عرّابته الساحرة" ميري"؛ فلطالما أخبرته أن زمن الساعة هو زمانه، ولكنه لم يتوقف يومًا ليسألها ماذا تعنى؟

وقف أمام "ميري"، التى لم تبدي أي اهتمام لمنظره المضطرب، ووضعَت كتابها بهدوء جانبًا حين رأته، قال في فزع:

لقد توقفَت الساعة، سأموت يا ميرى؛ يجب أن تفعلي شيئًا لتعيديها للعمل.

قالت ميري وهى تبتسم لسذاجته: لو كان توقفُها يعني انتهاء حياتك ألا ينبغي أن تكون ميتًا الآن؟

قال -ولا زالت أنفاسه تتلاحق من الخوف-: نعم، هذا ما أحاول أن أخبركِ به.

قالت ميرى -وهى تضع يدها على قلبه-: إنك متّ مرة بالفعل، ولن تموت ثانيًا.

همس ذاهلًا: أنا مِتّ؟!.

أمسكت يده المرتجفة وأجلسته بجانبها، وقالت:

إنك من نسل مصاصين دماء حقًا، ولكن ذلك من ناحية الأب فقط، فقد وقع

أبوك في حب واحدة من البشر.

تراجع قليلًا بوجهه، وظهر الاشمئزاز عليه:

- كيف فعل ذلك؟! ماذا يوجد في البشر يدعو للحب؟
- لا أعرف، ولكن أباك كان دائمًا يتصرف بحماقة.
- حسنًا، أكملي، ماذا حدث بعد حبه لتلك البشرية؟
- حملَت منه، وأحضرها إليّ لأرعاها حتى تلد، وقد فعلتُ؛ فقد كنت صديقته الوحيدة بعد أن غضبَت عليه العائلة لفعلته تلك.
- لهذا لا أعرف أحدًا منهم.
- نعم، فهم لا يعرفون بوجودك، فقد سمَّكَ جدك حين ولدت، وقتل أمك، وجاءَني أبوك منهارًا، وتوسّل إليّ أن أنقذكما، لم أستطع فعل شيءٍ للبشرية؛ فقد ماتت، وهذه نهاية كل البشر، أما أنت فكان بدمائِك جينات أبيك؛ لذا غيّرتُ دماءَك، وعدتَ للحياة، ولكن كمصاص دماء، وليس بشريًا كما وُلدت.

قال وهو يقبل يدها بحنان:

- قد كنت أتساءل لماذا أحبك هكذا طوال الوقت؟ والآن عرفت السبب؛ أنك ملاكي يا ميري.

قالت بتأثر: إنك تتلاعب بي كوالدك. دعني أُنهي لك الحكاية حتى تفهم.

- حسنًا أكملي.

لقد وضعتُ لك تلك الساعة المسحورة؛ لتتوقف حين يبدأ عمرك الأبدي، فمن هذه اللحظة صرتَ مصاص دماء له كل المميزات، و انتهى الجزء البشري الذى كان بداخلك.

ابتسمت له، وقبلته على خده مهنأة، وقالت: مرحبًا بك في الأبدية.

ضحك ووضع يده على قلبه، ولكنه لم يشعر به، لم يعد يشعر بأنفاسه، أصبح كالهواء، قال وهو يرتفع عن الأرض:

- أشعر بخفة لم أعهدها من قبل، لم أعد أسمع أصوات، ولا أحسّ بحركة أعضائي الداخلية، هل لا زالت موجودة؟
- نعم، ولكنها لن تزعجك ثانية.

قال وهو يضحك بشدة: - أهذه هي الأبدية؟ ألن أقابل عائلتي إذًا؟

قالت -وقد اضطربت ملامحها-: لمَ تريد مقابلتهم إن كانوا لا يريدون ذلك؟ لا تكن أحمقًا كأبيك.

ابتسم لها، وقال: لن أسألك لمَ يصيبك الاضطراب كلما ذكرتُ عائلتي؛ فسوف أترك تلك الحكاية لوقت آخر، بما أننا سنحيا سويًا للأبد.

قالت، وهى تبادله الابتسام: هذا أفضل.

قال بمرح: سوف أذهب لأتناول الغداء بالخارج، كنت أتمنى أن أدعوكِ معي. لا، فلتذهب وحدك.

*****

الفصل الثاني

كان مولعًا بملاحظة البشر على الرغم من كونهم لا يتعدو مجرد حيوانات تسلية، يسعده أن يختار شخصًا ما، ويراقب حياته من بعيد.
هذا بخلاف ضحاياه؛ فهو لم يكن يحب أن يعطيهم صفة، فلا يعرف أسماءَهم، ولا ينظر لوجوههم، ينقض عليهم من الخلف حتى لا يصادف عين الضحية.
لم يقترب يومًا من البشر بغرض آخر. لم يشعر أبدًا بإنجذابه لهم؛ فمن ذا الذي يصادق طعامه؟! فالبشر بالنسبة له خُلقوا لشيئين: الأكل، والتسلية.
تحدث مع ميري كثيرًا عمّ يشعر به من اشمئزاز ومن ضعف وغباء البشر، وأنه لا يفهم كيف يقع أبوه في حب بشرية بلهاء؟
قال: إننى لم أزل غير مستوعب لما ذكرتيه لي سابقًا عن تلك البشرية التى أحبها أبي، حتى أني صرت ألاحظ البشر كثيرًا لعلي أجد بهم ما يلفت الانتباه.
قالت ميري بنظرة متفحصة: وماذا وجدت؟
لا شيء، إنهم مجموعة من الحمقى يقتلون بعضهم لو لم نقتلهم نحن.
قالت وهى تبتسم بفخر: إنك أذكى من أبيك، ومن أمك بطبيعة الحال، لا تدرى كم أنا سعيدة بكلامك هذا؛ فهو يجعلنى أطمئن عليك.

- تطمئنى علي؟! من ماذا؟!
- أنك لن تقترب منهم.

قال بلهجة ساخرة: وماذا سيحدث لو اقتربتُ منهم، إنهم لا يقوون على شيء؟ ماذا يمكن أن يخيفك من اقترابي منهم؟
قالت ميري بلهجة حازمة: لا تكن أحمقًا كأبيك؛ فقد حذرته من البشر مثلما أحذرك الآن، واستخفّ بي مثلما تفعل.

إنى لا أستخف بك يا ميري؛ فلا تغضبي.

قالت - وقد هدأت قليلًا-:

البشر على الرغم من كونهم الأضعف، لكنهم الأقدر وقت الحاجة؛ فلا تغتر بضعفهم وغبائهم، فنهايتك لو قُدّر لك ستكون على يد أحدهم؛ لذا فلو أردت الخلود لا تقترب منهم كثيرًا.

- قال في ذهول، ودون رغبه في الجدال فكلامها كان حادًا: حسنًا.

شعرَت ميري بضيقه، فقالت برفق:

- إنك تمتص مع دماء البشر حياتهم، وأعمارهم، وتضيفه لعمرك، وهذا ما تريده منهم فقط.
- نعم أعرف، ولكن ما يحيرنى هو قدر معرفة البشر عنّا، ومع ذلك لا يؤمنون بوجودنا، ويعدونا خرافات ليس لها وجود.، لقد شاهدت أفلامًا كثيرة عنا، وقرأت كتبًا عن السحرة، ومصاصي الدماء، وعن جدي دراكولا، إنهم بغبائهم يعدونه خرافة؛ لذا فهم لا يفكرون في محاربة ذريته مثلما حاربوه، وقتلوه.

قالت ميري بتفاخر:

- لا تنسب إليهم الفضل في اعتقادهم هذا؛ فهذا أهم إنجازاتنا، إننا استخدمنا كل مواهبنا وقدراتنا في الإيحاء والتخفي؛ لنوصلهم إلى تصديق أننا خرافة، ولم يكن لنا وجود؛ فبعد زوال عصرنا الذهبى وتوالى النكبات علينا أصبحنا مهددون من هؤلاء الحمقى.
- لهذا نعيش بعيدًا عنهم.

- نعم؛ فهذا يضمن لنا الأمان، والحرية، وإن كنا لم نعد نتباهى بقدراتنا كالسابق.
- لمَ؟
- لم يعد هناك مشاهدين؛ فقد كنا نتباهى على البشر بقدرتنا.
- قال وهو ينظر للساعة: إنى لا أمل النظر إليها؛ فثباتها يشيع في نفسي الهدوء.

ابتسمت له، فأكمل: لن تتحرك ثانية، إنه إحساسٌ رائع.
اختفت ابتسامتها، وبدا الاضطراب على ملامحها، لم تكن تريد أن تخبره حتى لا يفقد استمتاعه بفكرة الأبدية.
لاحظ تغيرها؛ فقال: ما الذي تخفيه عني؟
قالت وهى تحاول انتقاء كلماتها: إني رأيت نبوءة تخصك من فترة، ولم أُرِد أن أخبرك بها حتى لا يصيبك الكدر.
قال مازحًا ليشجعها على الكلام: قولي، ولا تخشي شيئا؛ فأنا رجلٌ عجوز بالرغم من مظهري هذا، فلا تغترّي به أنتِ أيضًا.
قالت بحنان صادق: إنك طفلي مهما كبرت، ومهما مر من وقت.
صمتَت قليلًا، ثم قالت وهى تتحاشى النظر إليه:
- إن النبوءة تقول أن الساعة ستتوقف مرة أخرى.
- وماذا سيحدث لو توقفَت مرة أخرى؟
- ستكون تلك نهايتك. - قالتها كأنها تُلقي بحمل ثقيل مرة واحدة.

قال في ذهول: أهذا كل شيء؟ تنتهي حياتي بتلك البساطة.

زادت حدة نبرة صوته وهو يقول:

ألم تخبريني بأني سأحيا للأبد، و أنه ليس هناك نهاية؟

قالت ميري في محاولة يائسة لتهدئته:

- إنه أمر غير مؤكد، إنها تتوقف على بشري معين حين يظهر ويقترب الخطر، ستعود للعمل ثانية؛ لحساب ما يتبقى لك في الحياة.
- ألا يوجد حل، ربما نقتل ذلك البشري قبل أن يقتلني؟
- إنى لا أعرف كيف ترتبط حياتك بحياته،أسيقتلك أم أنّ روحكما متصلة بطريقة ما تجعل موته مرتبط بموتك؟ هناك العديد من الاحتمالات لن نعرف حتى يحين وقتها.
- وكيف أعرفه حين يظهر؟

قالت ميري بلهجتها الحانية:

- سوف أبحث لك عن وسيلة حتى يحين الوقت، لا تخف؛ فأنا بجانبك، ولن أتركك تواجه ذلك بمفردك.

الفصل الثالث

كانت السنين تمر بالعشرات، ولم تتحرك الساعة حتى نسي أمر النبوءة، وعاد لحياته الأبدية، كان ينظر إلى الساعة ويتأمل ثباتها، وهو يبتسم كعادته كل مساء قبل أن يبدأ يومه، لم يصدق عينيه عندما وجدها بدأت تتحرك، وحبات الرمال تتسرب منها. ظن أنه يتوهم؛ فالظلام دامس، ولكنه يرى جيدًا في الظلام، فما الجديد؟ إنها تتحرك بالفعل، ولا شك في ذلك.

أخذ الساعة، وهرع إلى الساحرة ميري، أصابها الهلع هى الأخرى حين رأت تحرك الساعة، وقالت له باضطراب بالغ:

- ليس بيدي حيلة؛ فقد بدأ الأمر بالفعل ولا أستطيع إيقافها، ولكني أحضرت لك شيئًا سيساعدك للعثور عليه.

أخذَت تقلب في أشيائها المبعثرة في كل مكان؛ فقد كانت تحيا في مغارة مليئة بالأشياء العجيبة، كان لا يحب زيارتها كثيرًا؛ بسبب تلك الفوضى التى تعم المكان؛ فهو يحب الهدوء والفراغ؛ لذا لا يوجد في قلعته سوى أريكة، وساعته، وتابوت ليستلقى فيه.

عادت ميري، وهى تحمل بوصلة بيدها أعطتها له Kقالت ميري، وقد اتسعت عيناها:

- إنها سترشدك لمكان الشخص المنشود، واحرص على أن يبقى حيًا حتى نعرف ما يربطك به؛ فلتحضره إلى القلعة، ونرى ماذا سيحدث؟

أخذ البوصلة وهو غير مصدق لكل ما يحدث؛ فأخذت التساؤلات تغزو عقله، وتسيطر عليه، فكيف يتحكم في مصيره بشري غبي فان؟ كيف يخرجه من حياته الأبدية وهو لا يتمتع بأى قدرات خارقة مثله؟؛ فهو يستطيع القضاء

على سكان مدينة كاملة، ولا يستطيعون فعل شيء له.
لماذا تكون نهاية جنسه على يد جنس ضعيف لا أهمية له غير أنه طعام لهم؟
عاد للقلعة وجلس قليلًا؛ ليتمالك نفسه، ويجمع أفكاره، ويعد نفسه للسفر، أحضر خريطة للعالم، والبوصلة السحرية، وقرر السفر حول العالم؛ ليبحث عن الشخص المنشود.
فكر للحظات أن يحمل الساعة معه، ولكنه تركها خوفًا أن يصيبها تلف.
لم يأخذ حقائب معه؛ فهو لا يحب تكديس الأشياء، فهو يشتري بذلة جديدة كل مرة، ويتخلص من الأخرى، وهذه عادة اكتسبها من ميري حين كانت تربيه وهو صغير؛ فهي لا تهتم بأمور التنظيف، وهذا واضح في اختيارها لمغارة تحت الأرض لتسكن فيها.
جلس ليحدد أماكن الاستراحة أثناء الرحلة، ويحسب فروق التوقيت بين الدول حتى لا تفاجئه الشمس، وهو بالخارج.
ألقى نظرة أخيرة على الساعة، وتحول إلى خفاش وطار من النافذة.

الفصل الرابع

وقفَت تلقي المحاضرة في ثقة تصل لحد الزهو بالنفس، فهى ترى بين الطلاب من هم أكبر منها سنًا، ولكنهم ليسوا مثلها؛ فهى ليست أصغر محاضِرة في الجامعة وحسب، ولكنها من أفضل العلماء في مجالها؛ فكم هم محظوظون هؤلاء الطلاب بتدريسها لهم.

أنهت محاضرتها، ثم أخذت تجمع كل موادها العلمية، وأجهزتها الإلكترونية؛ فليس لها مساعد، فقد تعلمت الدرس من أبيها العالم الكبير الدكتور عزت فهمى، فهو كان كبير الثقة بالأخرين، وله أتباع ومساعدين حتى غدروا به وقتلوه؛ لذا فهي تتحاشى التعامل مع أي شخص، ليس بدافع الخوف، ولكنه الحذر.

عادت للبيت دون أن تمر على حجرة المكتب المخصصة لها في الجامعة؛ فهى لا تعطي في اليوم سوى محاضرة واحدة، وأحيانًا كثيرة تغيّر ميعادها، فبالرغم من أنها تعرف أن خبر اختراعها الكبير لم يصل لعلم أحد بعد، لكنها تعرف بحدوثه؛ لذا أصبحَت أشد حرصًا من ذي قبل.

دخلت بيتها، ووقفت ترتب أغراضها على منضدة كبيرة بجانب الحائط، اتجهت لمكان المطبخ، فهو موجود بأحد جوانب الحجرة، فالبيت كله ليس به فواصل بين الغرف سوى حائط وحيد يفصل بين مكان المعمل، ومكان المعيشة.

أخرجَت بعض الفاكهة، وزجاجة لبن من الثلاجة، صبّت لنفسها كوبًا من الحليب، وجلست لتستريح قليلًا قبل أن تبدأ العمل، كانت حياتها منظمة نظامًا دقيقًا ما عدا ما يتعلق بأوقات عملها، كانت لا تتوقف في مواعيد محددة؛ لذا كانت تعطي محاضراتها آخر اليوم الدراسي؛ حتى تضمن أن تكون في كامل تركيزها.

كان يراقبها من بعيد؛ ليعرف مدى قوة ذلك الكائن، الذى ستكون نهايته على يده.

صدم حين أشارت البوصلة عليها؛ فقد وجدها ضعيفة، فهي شديدة النحافة، ولا يمكنه تخيل أن في إمكانها إذائه.

كانت لا تتكلم كثيرًا، أو لا تتكلم مع أحد سوى تلك الساعة التى كانت تشرح فيها بحماس شديد، أشياء رآها سخيفة؛ فهو يرى أن الإنسان كائن ضعيف، وتافه، ويريد أن يطيل بقاءَه في الدنيا، ولا يدرى لمَ؟ فما دام شكله يغري بالفتك به إذًا فقد أتم رسالته في الحياة؛ فهو نفسه يفعل ذلك، فلا يسأل حيوان قتله، وسلخ جلده، وطهاه أتريد أن تموت الآن، أم أنك ترى لبقائك في الدنيا أهمية قصوى؟

ضحك لذلك الخاطر، وقال محدثًا نفسه:

إنى أكثر رحمة منهم بطعامي.

أخذ يتأملها وهي تأكل، وفكر:

إنها ليست مغرية لأفترسها، إنها حتى مملة لأتابعها، ولكني مضطر أن أفعل حتى أعرف كيف يمكنها إذائي؟ كما أخبرتنى عرابتى ميري، يالها من ساحرة عطوفة، لا أدرى لمَ قتلَ البشر كل السحرة ومصاصي الدماء؟ إن كثرتهم كالجراد تفيدهم كثيرًا؛ فقد سيطروا على الأرض على الرغم من أفضليتنا الواضحة، حتى صرت أنا أخاف تلك المخلوقة الهشّة التي تأكل الخضروات كأرنب مذعور.

قامت وأعادت باقى الطعام في الثلاجة، كتبَت لنفسها ملاحظة أن تحضر المزيد من الطعام، وثبتتها على الثلاجة.

غسلت الكوب الفارغ، وأدارت ماكينة صنع القهوة، وصبت لها فنجانًا كبيرًا، وتوجهت للمعمل.

تسلل إلى داخل البيت من النافذة، ونفض نفسه؛ فتحول من صورة الخفاش لصورته العادية.

تفحص الأشياء الموجودة بالشقة، لم يجد شيئًا مثيرًا للاهتمام، شعر أن بينهما تشابه؛ فهى لا تحب الأشياء الزائدة عن الحاجة مثله، فهو لا يوجد لديه سوى الضروريات؛ أريكته، وساعته، وتابوته؛ فحياته أبسط منها، فهو لا يملك كل هذه الأدوات الخاصة بالطعام؛ فهو يأكل في الخارج.

ابتسم لدعابته، وقال:

كم أستمتع بصحبتي لنفسي؛ فلا يوجد من هو أذكى وأظرف منى، وتريد تلك الغبية أن تنهي حياتي الفريدة، من تكون تلك الفانية الغبية التي حتى لا أستسغيها كطعام لي؟؛ فكما يبدو ليس فيها دم كافي لي.

أخذَت تتفقد حالة الشمبانزي، والفئران، وتر اقب الإشارات الحيوية لهم على الشاشة، وتسجل ملاحظتها، أخذت عينة من دم الشمبانزي ووضعتها على شريحة زجاجية، ووضعتها على جهاز ونظرت للشاشة، وهالتها النتائج؛ فأخذت تقفز، وتصيح:

نجحت.. نجحت... فعلتها... إنني عبقرية.

وقفَت بطريقة تمثيلية، وقالت:

- لقد قامت الدكتورة نوال عزت فهمي بأعظم اختراع في القرن والقرون السابقة.

كان ير اقبها من خلف الباب من خلال ثقب المفتاح، تراجع قليلًا حين عَلا صوتها؛ فكاد يقع، فأسند يده على الباب؛ ليتفادَى السقوط.

شعرت بحركة بالخارج؛ فاتجهت للباب؛ فأسرع هو للتحول لخفاش، وخرج من النافذة. خرجَت تستكشف المكان؛ فقد ساورها الشك أن يكون قد تسلل لبيتها أحد اللصوص الذين يريدون سرقة أبحاثها، ولكنها لم تجد أحدًا.

الفصل الخامس

" كنت أعرف أني أملك كل اللغات؛ فلم يتحدث أحد أمامي بشيء إلا فهمته، وذلك لكوني فريدًا من نوعي، ولكن تلك البشرية تتحدث عدة لغات، وبعضها لا يتحدث به أحد غيرقلة، إنها تُفني عمرها الفاني في تعلم أمور أمتلكها أنا دون جهد مني.

أترى هذا سبب تهديدها لي؟ أنها تريد ما أملكه أنا بلا جهد؛ فهي تشقَى؛ لتُوقِف ألم الإنسان في حين أني لا أتألم، وتشقى في تعلم أمور أنا أعرفها دون تعلم، ولكن كيف ستسلبني ذلك؟ فهي حتى الآن غافلة لوجودي، وناكرة بعقلها كل ما يفوق عقلها.

إنى أر اقبها منذ أيام، إنها تكرر ما تفعله كل يوم."

أحس أنها تدور في دائرة، وعلى الرغم من أنه يحيا حياة أبدية منذ زمن بعيد إلا أنه أصيب بالدوار لتلك الدائرة المفرغة التى تدور فيها كل يوم، إنها لا تختلف كثيرًا عن فئرانها التى تدور في العجلات.

كانت كعادتها تتسوق الخضروات واللبن المعتاد حين لمح شخصًا يبدو مريبًا ير اقبها منذ دخلت المتجر، ولم يكن رآه من قبل.

وقف ذلك المجهول بالدور الثاني، وبجانبه صندوق كبير، و انتظر حتى ذهبت لمنطقة الخضروات كعادتها، ورفع الصندوق؛ ليلقيه عليها.

أسرع إليها لينقذها، ولكنها غادرت المكان دون أن تلاحظه؛ فقد تذكرت أنها سبق أن اشترت الخضروات بالأمس، ولا يزال لديها البعض، سقط الصندوق عليه، وبالرغم من أنه لا يشعر بجسده إلا أنه غضب لذلك الموقف السخيف الذي وضع نفسه فيه لأجل تلك الحمقاء.

تجمع الناس حوله، وأخذ بعضهم يسنده، ويطمئن عليه، ومنعته تلك الجموع من اللحاق بها، أو الاختفاء؛ فذلك سيثير شكوكهم.

ذهبَت إلى المكتبة، ولحق بها؛ لأنه يعرف خط سيرها جيدًا، فهي تذهب كل يوم؛ لتتفقد الكتب الجديدة.

لاحظ وجود شخص آخر يترصدها، وتبدو عليه ملامح القوة كسابقه، دخله الشك؛ فالأمر أكبر من مجرد شخص يكرهها، وتساءَل لمَ قد يهتم أحدٌ غيره بها؟!

كانت سارحة في عالمها الخاص كعادتها، حتى أنها أحيانًا تفلت منها بعض الكلمات بصوت عالٍ.

كانت تقلّب في الكتب المعروضة حديثًا، وتدقق فيها كأنه لا يوجد غيرها في الدنيا؛ فشعر أن الشخص الذى يراقبها قد لاحظ استغراقها هذا، فدفع بمكتبة كبيرة مليئة بالكتب كانت خلفها؛ لتسقط عليها، ولكنها ألقت بالكتاب من يدها، وقالت:

هراء.

وغادرت مسرعة الخطى كعادتها؛ فسقطت المكتبة عليه، كرهها في تلك اللحظة، ولولا تعليمات ميري المشددة له بألا يمسها أذى لقتلها دون تفكير.

أنهت جولتها اليومية المعتادة وعادت لبيتها، لم يكن معها الكثير؛ لذا قررت أن تصعد على السلالم عوضًا عن المصعد الكهربائي؛ ليتسنى لها التفكير في تجاربها.

فكر أنها تكرر كل يوم نفس الأشياء، والذين يراقبونها يعرفون ذلك، وهى كل يوم تستخدم المصعد؛ لذا ربما كان أحدهم موجودًا بالمصعد؛ ليقتلها.

دخل المصعد، فلم يجد به أحد، ولكنه سرعان ما وجده يتحرك بسرعة للأسفل، واصطدم بالأرض، وأحدث دويًّا شديد.

نفض عن نفسه الأنقاض، وطار مسرعًا قبل أن يلمحه أحد؛ ليلحق بها قبل أن يصيبها أذى.

تسلل داخل الشقة؛ فوجدها مقيدة على كرسي، وعلى وجهها غطاء أسود، ويقف رجل مجهول مفتول العضلات كالرجلين اللذين حاولا قتلها سابقًا يتحدث في هاتفه المحمول، ويقول:

إنها لا تموت، لقد حاولنا قتلها اليوم ثلاث مرات، ولم تنجح أي من محاولاتنا، وهي أمامى الآن؛ لذا أردت أن أسألك؛ ألازلتَ تريد قتلها أم أجلبها لكَ وهى حية؟

سكت قليلًا ليسمع الرد، ثم قال:

حسنًا، لك ما تريد.

أخرج مسدسه، وأضاف إليه الجزء الكاتم للصوت، وشعر بلسعة ألم في رقبته، ثم ببرودة تنتشر في جسمه، ثم فقد الإحساس بكل شيء.

فكر أن يحملها ويطير إلى القلعة، ولكنه سيلفت إليه الأنظار؛ فالمدينة لم تعد هادئة ومظلمة في الليل، بل إنها أكثر صخبًا في الليل عن النهار، وهو لا يستطيع تركها؛ فمن المؤكد أن من حاولوا قتلها سيعودون لينالوا منها.

نظر إليها قليلًا، ثم فك قيودها ونزع عن وجهها الغطاء، ووجد مفاتيح سيارتها في مكانها على المنضدة كما اعتادت أن تضعها، أخذ المفاتيح وحملها، ورسم القلق على وجهه الجامد، وخرج.

قابله البواب فأوقفه، وقال: خيرًا، ماذا أصاب الدكتورة؟

لم يستطع تذكر اسمها؛ فهو لا يدعوها إلا بالدكتورة.

قال وقد حاول إتقان تمثيل القلق:

إنها مريضة جدًا، ويجب أن أذهب بها للطوارئ حالًا.

قال البواب، وهو يشيعه:

فى رعاية الله، بسيطة إن شاء الله.

تركه، وأجلسها على الكرسي بجانبه في السيارة، ولاحظ وجود من يراقبهما؛ فحملها للكرسي الخلفي، وأنامها عليه حتى لا تصيبها طلقاتهم حين تبدأ المواجهة.

سار مسرعًا، وحاول أن يخرج من زحام المدينة إلى الجبال، ولكنها بعيدة جدًا، ولا توجد بتلك المنطقة غابات، ولم يتبقّ إلا ساعات قليلة وتشرق الشمس.

خرج من المدينة، وبدت الصحراء تلوح له، والسيارة الأخرى تتبعه، حاول أن يزيد السرعة، ولكن السيارة قديمة الطراز؛ فلم تسعفه.

تململت نوال قليلًا، ثم فتحت عينيها وقالت:

أين أنا؟ ومن أنت؟ وماذا تريد؟

كانت السيارة التى تتعقبهم هى الوحيدة التى تسير في الطريق بجانبهم، اقتربت منهما وأخرج أحد ركابها مسدسًا، وصوب إليها.

قالت نوال بعصبية:

لمَ لا ترد عليّ؟

حاولَت أن ترفع رأسها، ولكنها فوجئت بوابل من الرصاص في اتجاههما، وقد تهشم زجاج السيارة، وتناثر حولها، حمَت نفسها بوضع سترتها فوق رأسها ؛لتخفى وجهها، وجلست بأرضية السيارة وقد تملكها الرعب.

كان هو في تلك الأثناء خافضًا رأسه؛ ليحسب عدد الرصاصات، وحين فرغ المسدس وحاول من كان يطلق الرصاص ملأه ثانية أخرج رأسه من السيارة، وأطلق أربع رصاصات، ثم اعتدل؛ ليقود السيارة إلى الخلف قليلًا، وأطلق رصاصة خامسة، وابتعد بالسيارة، وبعد قليل سمعا انفجار مدوٍ أصاب نوال بالفزع، وفقدت الوعي.

الفصل السادس

كانا قد وصلا للصحراء، ولم يكن هناك أحد، وأوشك الصباح أن تشرق شمسه؛ لذا حملها، وجلسا في أحد الكهوف المظلمة حتى تغرب الشمس ثانية.
عند الغروب حملها، وطار بها بأقصى سرعة؛ ليصل بها لنصف الكرة الأخر حيث توجد الغابات وقلعته.
نزل بها في أول غابة صادفها، واختبأ بها في إحدى الكهوف، و انتظر حتى يمر وقت الصباح ويأتي وقت الغروب؛ فيعاود رحلته للقلعة.
أفاقت نوال ونظرت حولها، وقالت له في هلع:
أين أنا؟ أتظن أنك ستفلتُ بعملتك تلك؟ أين نحن؟
نظر إليها طويلًا دون أن ينطق، أصابتها نظر اته بقشعريرة؛ فهي كنظرة العلماء لعيناتهم، شعرت أنها ضحية، و أنه يمكن أن يفعل بها ما يريد، وأصابها الدوار وغابت ثانية عن الوعي.
أسند رأسه للخلف في ارتياح، وقال:
إنها تصيبنى بالدوار؛ فلا أعرف كيف تعيش بكل هذه الذبذبات المزعجة التى تصدر عن عقلها؟
كان سعيدًا بقدرته على التأثير على البشر، وجعلهم ينامون؛ فهذا رحمه من إزعاجها له طوال الوقت.
غابت الشمس، فحملها وطار بأقصى سرعته؛ ليصل للقلعة قبل الشروق.
وصل للقلعة، وضعها على الأرض، ثم تذكر أن اللصوص كانوا يقيدونها، ويكمّمون فمها حتى لا تزعجهم، بدت له فكرة جيدة، كان يعرف أنها ستأخذ وقتًا لتستيقظ، فذهب ليجلب كرسيًّا، وحبال من أقرب مدينة.

فكر أن ذلك سيكون أفضل لها؛ فهو لا يعرف إنْ كان كثرة تنويمه لها قد يصيبها بأذى؛ فهو لم يستخدمه بتلك الكثرة من قبل، ولا يعرف تأثيره.

أحضر ما يريد، ومر على ميري قبل أن يعود للقلعة؛ ليخبرها بما حدث، فذهبت معه للقلعة؛ لترى ذلك المخلوق الذى يهدد حياة صغيرها.

وجدتها ميري شديدة الهزال... ساعدته في تقيدها.

قال:

ماذا نفعل الآن؟

قالت ميري:

اتركها هنا قليلًا حتى نعرف كيف يمكنها أن تقضي عليك وتنهي حياتك؟ لا تستهون بها؛ فالنبوءة لا تكذب، ولكنها لم توضح كيف.

لو كنت أعرف كيف لارتحت؛ فأهون شيء علىّ هو قتلها، إنها مزعجة ومملة.

كما أخبرتك سابقًا، ربما يكون موتك مرتبطًا بموتها؛ فلو قتلتها لقتلت نفسك معها.

أكملت، وهى تتأملها:

تحلّ بالصبر قليلًا، وسنعرف كل شيء.

الفصل السابع

أفاقت نوال فوجدت نفسها مقيدة على الكرسي، أخذت تضرب الأرض برجلها حتى سقط الكرسي، ولكنه سنده قبل أن يصطدم بالأرض.
كانت نظراتها حادة كأنها توشك أن تنقض عليه، لولا وثاق يدها ورجلها.
كان سينزع الشريط الأزق عن فمها، ولكن نظراتها العدائية أغرته باللهو قليلًا.
تركها حتى أصابها الوهن، وأمالت رأسها على صدرها من التعب، نزع الشريط عن فمها، نظرت إليه في وهن، فك عقدة يدها ورجلها، وحملها ووضعها على أريكته.
أقلقه بهتان لونها، وذلك الضعف البادي عليها، فكر في أنه يمكن أن يكون ذلك بسبب عدم تناولها طعام كل تلك الفترة؛ فهو قد أصابه العطش للدماء حتى كاد ينقض عليها، على الرغم من أنها ليست شهية حتى.
تركها وذهب ليجد من يقطات به حتى لا يضعف ويقتلها، ويحضر لها بعض الطعام.
عاد أكثر نشاطًا وبريقًا، وأحضر معه ما كانت تشتريه لنفسها كل يوم عندما كان ير اقبها.
صب كوب لبن، وأسند رأسها على ذراعه، وأخذ يسقيها حتى أفاقت قليلًا واعتدلت في جلستها؛ فوضع لها بعض الفاكهة في طبق لتأكلها بمفردها، كما كانت تفعل ببيتها.
أكلت قليلًا ثم عادت للنوم، تأملها قليلًا و ابتسم، وقال:
ربما يمكنني أن أتخذ منها حيو انًا أليفًا كما يفعل البشر، فهي بالرغم من كل إزعاجها مسلية.
بعد فترة أفاقت وأخذت تتمطع، وقالت له:

- كم الساعة الآن؟
- لا أدري.
- لمَ لا تشغل الضوء الكهربائي بدلًا من تلك الشموع؟

قال في اقتضاب:- لا أريد.

- آه عرفت ماذا تفعل، ولكني عرفتُ ملامحك على كل حال، و أنت تسقيني اللبن؛ فلا داعي للحيَل، أشعل النور.
- لا يوجد سوى تلك الشموع.
- قالت في غضب: إنك عنيد، وغبي.
- و أنت حمقاء، ومزعجة.
- كيف تكلمني بتلك الطريقة؟ ألا تعرف من أكون؟
- أكلمك مثلما تكلميني، و أنت أيضًا لا تعرفين من أكون؟
- ومن تكون يا ترى؟
- هذا ليس من شأنك.
- إنكم لن تصلوا بفعلتكم هذه إلى أي شيء.
- مع من تتكلمين؟
- وضع يده على وجهه، وقال: ومجنونة أيضًا، ماذا فعلتُ ليحدث لي كل هذا؟
- قالت في نفاذ صبر: لستُ مجنونة يا هذا، إنني أقصد العصابة التى تعمل معها، يا لك من أحمق.
- لا توجد عصابة أعمل معها.

قالت وهى تمسك رأسها:

- إنك تصيبني بالدوار.
- اصمتي إذًا وارحميني.
- قالت وهى تتلفَت حولها: أين نحن؟
- قال في ضيق: هل يمكنك أن تبقي صامتة لدقيقة واحدة؟
- قالت نوال في تحدى: لمَ؟
- حتى لا أفقد أعصابي، و أفعل شيئًا أندم عليه.
- وهل تظنني أحب التكلم معك؟
- حسنًا، لا تفعلي.
- قالت وهي تعقد يدها على صدرها: حسنًا.

صمتت قليلًا، ثم قالت: أريد أن أرى الشمس.

أرعبه ذكر كلمة الشمس، وفكر أنها ربما تعرف حقيقته، وتريد قتله فعلًا.

- قالت نوال: لمَ لم ترد؟
- قال في شرود: أرد على ماذا؟
- يا إلهى، قلت لك أريد أن أرى الشمس.
- لماذا؟
- قالت في نفاذ صبر: لأستمد من أشعتها الفيتامينات، والطاقة، والحرارة ككل الناس.
- ارتاح لجهلها بحقيقته، وقال في حزم: اممم، لا، لن تريها.
-

- قالت بغضب:ماذا ستستفيدون من كل ذلك، أنا لن أخبركم بشيء حتى لو قتلتموني؟
- قال بلهجته اللامبالية: حسنًا، لا تتكلمي إذًا.
- قالت بضيق: إنك تكرر ذلك كثيرًا "لا تتكلمي... اصمتي" أتراني سعيدة بحديثي معك؟
- قال محاولًا أن يضع حدًا لثرثرتها اللانهائية معه: لا تعدّيها أساءة، ولكني لا أحب الكلام كثيرًا؛ لذا أرجو أن تكفي عن الكلام معي وكفى.
- قالت نوال: إنك قليل الذوق.
- شكرًا.

حملت الطبق، والكوب الفارغين، وقامت تتلفت حولها.

- عمَّ تبحثين؟
- إنني لا أتحدث معك؟

تركها ولم يجادلها،أخذت تفتح الأبواب وتنظر بداخلها. كان كل باب يقودها إلى لا شيء؛ فالغرف كلها متشابهة معتمة وفارغة.

تعبَت من البحث؛ فعادت لمكانها على الأريكة، فوجدته مستلقيًا عليها، فوضعت الطبق والكوب على الأرض، وجلست على الكرسي الذى كانت مقيدة عليه، خنقها الكلام ولم تستطع كتمانه أكثر.

قالت بغضب:

- أهذا معتقل، أو مكان للتعذيب بصورة ما؟
- لا.

قالها باقتضاب دون أن يلتفت إليها، حتى لا يشجعها على فتح حديث، ولكنها قالت بالرغم من شعورها بما يريد:

ولكنى لا أجد حمامًا، ولا مطبخًا، ولا مصدرًا للمياه من أي نوع، إنه ليس مكانًا للمعيشة.

قال بهدوء: أتريدين ماء؟

قالت بتهكم: كل إنسان يريد ماء ليعيش.

حسنًا، عندما تريدين شيئًا فقط اطلبيه، ولا تتحدثي كثير.

اشتد بها الغضب، أمسكت الكوب وألقت به، فلم يتهشم.

قال وهو يمسك الكوب والطبق:

إنها فكرة رائعة أن نتخلص منهم .

وألقى بالكوب والطبق؛ فتناثرت شظايا الزجاج في كل مكان، وصدر صوت مزعج جراء الصدام، انكمشت على نفسها في فزع من تصرفه العنيف، شعرت أنه يريد إيذاءَها، ولكن شيء أكبر منه يحد رغبته تلك، و أنه أكثر غضبًا منها من هذا الوضع؛ لذا قررت أن تصمت فعلًا، وجلست على الكرسي في هدوء.

أراحه تصرفها؛ فعاد للاستلقاء على أريكته في هدوء ناظرًا للفراغ.

الفصل الثامن

أفاقت نوال من نومها، تلفتت حولها فلم تجده، قامت وحاولت فتح الباب المؤدي للسلالم فلم يفتح، عرفت أنه أغلق عليها الباب وتركها، وربما يكون نائمًا، أو يتسلّى. تلفّتت حولها، فلم تجد سوى نافذة مغلقة ومسدلًا عليها ستارة سوداء، حاولت فتحها، ولكنها كانت مغلقة من فترة طويلة؛ فحملت الكرسي ودفعت به درف النافذة حتى فتحت في آخر الأمر.

كانت الحجرة بالدور الثاني؛ لذا لم تكن فكرة الخروج من النافذة مستحيلة، وزاد قبول الفكرة وجود شجرة كبيرة بقرب النافذة، تعلقت بها ونزلت بصعوبة شديدة؛ فقد آلمتها ذراعاها كثيرًا إلى أن وصلت للأرض. تفقدت نفسها قليلًا لتطمئن على سلامتها، ثم جرت؛ لتبتعد قدر استطاعتها عن القلعة قبل أن يشعر بغيابها.

كانت الأشجار عالية جدًا، والظلام شديد، كان المكان غريبًا عليها، لم تستطع تحديد المكان الذى يمكن أن يشبه هذا المكان؛ فيبدو في بلد آخر بالرغم من أن الوقت الذى قُضي لوصولها إلى هذا المكان قليل جدًا؛ فلا يمكن أن تكون ابتعدت كثيرًا.

كانت تتخبط في أحجار كبيرة، لم تكن تعرف أن هناك أماكن في بلدها بها مثل تلك الأشجار والصخور؛ فالمكان يبدو كغابة، ولا توجد في بلادها غابات.

على الرغم من خوفها وارتباكها ظلت تجري بأقصى طاقتها. كانت تبكي في أثناء جريها، فكرت في من يمكنها الاستنجاد بهم؛ فلم تجد أحد، لقد عاشت حياة فارغة ليس بها أحد يمكنها الاعتماد عليه، بل إنها لا تظن أن أحدًا سيلاحظ اختفاءَها، ولو لاحظ أحدهم فلن يفعل شيئًا. تُرى هل كانت حياتها عديمة القيمة إلى هذا الحد؟ هل كان حذرها الشديد سجنًا حبسَت نفسها فيه؟

شعرت أن ليس لهذه الغابة نهاية، وأن قدماها وكل جسمها قد اشتد به الألم، جلست أسفل شجرة تلتقط أنفاسها، وتحاول استجماع نفسها؛ لتكمل المسيروتجد حلًا، فما دام لا يوجد لديها سواها؛ فلا ينبغى أن تتخاذل. أحسّت بحركة خفيفة على أوراق الشجر الذابلة التي تغطي المكان؛ فحاولَت التركيز لمعرفة السبب، ولكن خوفها كان أكبر، فقامت مفزوعة، واستمرت في الجري.

شعر أنه غير قادر على الاستسلام لسكون تابوته كعادته؛ فعقله معلق مع تلك المخلوقة المزعجة الموجودة بالأعلى، لم يشأ وضعها في الدور السفلي حتى لا تهرب. قام ليطمئن عليها، فتح باب الحجرة؛ فوجد النافذة مفتوحة، وهى غير موجودة. نقَم على غبائه ليتركها وحدها، وزاد كرهه لها؛ لإزعاجها له في وقت راحته بعد أن أرهقته طوال النهار على غير عادته.

طار ليبحث عنها في الغابة، مسح جزءً كبيرًا حول القلعة، ولكنها لم تكن موجودة، زاد قلقه أن القلعة في الفراغ؛ أي أنها يمكنها المسيرفي أي اتجاه. سمع صوتَ ذئب شعر فيه بنشوة الفوز بصيد ثمين، توجه إلى مصدر الصوت؛ فوجدها تقف متجمدة، وقد شلّها الخوف أمام ذئب كبير مكشر عن أنيابه ومستعد للانقضاض عليها.

لم يعرف كيف ينقذها دون أن تعرف حقيقته، تذكر المسدس الذي أخذه من خاطفها، وأخرجه ببطئ حتى لا يشعر الذئب به، كان بالمسدس رصاصة واحدة متبقية؛ فصوب على رأس الذئب، وتناثر الدماء في كل مكان، وتناثر بعضه عليها. ظهر لها من خلف الأشجار على الرغم من أنها كانت تهرب منه إلا أنها سعدت لرؤيته؛ فقد أنقذ حياتها على كل حال.

ابتسمت له شاكرة، ولكنه قابلها بنظرة غاضبة، وقال:

- في المرة المقبلة لن أبحث عنك، سأتركك تذهبين حيث تشائين.

أشار إليها لتسير أمامه، سارت وهي لا تقوى على التذمر بالرغم من ألم قدميها الذي لا يُحتمل.

شعر بصعوبة تنفسها، وخشي أن تموت فيموت هو أيضًا، فلا يزال يجهل كيف يرتبط قدرهما.

- قال لها محاولًا أن تبدو لهجته لطيفة: هل أنتِ بخير؟ هل تعانين من شيء ما؟
- قدماي، لا أستطيع المشي أكثر؛ فالألم أكثر مما أحتمل.
- تردد قليلًا، ولكن الشمس يمكن أن تشرق وهما بالخارج لو ظلا يسيران بهذا البطئ، اقترب منها، شعرت بخوف؛ فابتعدت عنه.
- قال: إنني سأحملك لنكمل الطريق؛ فلا تكوني غبية.
- ألا يمكنكَ الكف قليلًا عن إزعاجي؟ فيكفيني ما فعلته أصلًا.
- دعينا من كثرة الكلام، وهيا لنسرع.
- حملها وسرع خطاه، كانت أقرب للرقض، وبالرغم من قربها من صدره لم تشعر بأنفاسه ولا بدقات قلبه؛ فظنت أن خوفها جعلها لا تسمع سوى دويّ دقات قلبها المتلاحقة. وعندما عاد للقلعة أجلسها على الأريكة، وأغلق النافذة وأسدل الستارة، وقال:
- اجلسى هنا، ولا تحاولي الهرب ثانية؛ فأنا لن أزعج نفسي بإنقاذك.

استلقت على الأريكة في استسلام؛ فقد هدها التعب، وحاولَت أن تنام؛ لتنسى ألمها. جلس على الكرسي ير اقبها؛ فقد طلعت الشمس، ولا يمكنه تركها بعد كل ما فعلته، فلا يريد الموت بسبب حماقتها .نامت نوال على أريكته، وهو لم يستطع الاسترخاء، فلم يعتَد السكون بالليل، وهى قد أرهقته بمر اقبتها طوال

النهار.

شعر برغبة في رؤية ميري المخلوق الوحيد الذى يشاركه مشاعره ومشاكله، فقد كانت تمر عشرات الأعوام عليهما كالأيام لا يريان بعضهما فيها، ولكنهما لا يشعران بذلك الوقت فحياتهما مع امتدادها فارغة، أما الأيام القليلة التى أعقبت توقف الساعة؛ فقد مرت عليهما كمئات السنين كلها قلق وأحداث متعاقبة، ولأول مرة يضطران للتفكير في أكثر من متعتهما، يفكران في بقائهما، فهذا أمر لم يكن محل شك من قبل.

أعد لنفسه مكانًا ليجلس فيه وسط زحام أشياء ميري المتعددة، وقال مازحًا:

لما لا تحوليها لأرنب مثلما يفعل البشر في عروضهم السحرية؟ أتذكرين ذلك العرض الذى شاهدناه معًا و أنا صغير؟

ضحكت ميري، وقالت:

مساكين.. لا يملكون أي مواهب سوى بعض الحيل الغبية.

هدأ ضحكهما قليلًا، ثم قالت ميري بلهجة جادة ملأَها الأسى:

لا أستطيع مساعدتك أكثر من ذلك في هذا الأمر، إنه يخصك وحدك، إنها معركتك، ويجب أن تواجه قدرك.

قال بانفعال:

أتتركيني الآن يا ميري؟

لن أتركك؛ فأنت تعرف أني فعلت لك أكثر مما يستطيع أي مخلوق وجد بهذا العالم أن يفعل.

أعرف، و أنا أقدر لك هذا، هل أساءت إليك دون أن أعي؟

لا، ولكن هذا أمر غريب لم يرد ذكره في أي كتاب من كتب السحر والخوارق.

نظرت إليه، وقالت:
إن كل ذلك بسببي، فلولا تدخلي الساذج وإعادة الحياة لك؛ لما كنا هنا الآن.
أنادمة على حياتي يا ميري؟
لا... بالطبع لا، ولكنك لم تُخلق مصاصَ دماء.
أعرف، و أنتِ صوبتِ هذا الخطأ.
إنه لم يكن خطأ.
ماذا تقولين؟ أتعني أن موتي محتم؟
ما أعرفه أن ما يحدث لغز بالنسبة لي، ربما يكون عقابًا لما فعلته، وربما لا يكون له علاقة بي، لست متأكدة من شيء، ولكني متأكدة أن الحل بيديك وحدك.
شعر أن حيرتها وقلقها خيانة له، فما بال تخاذلها عن مساعدته، وإعلانها الانسحاب من حياته، شعر أنه قد مات بالفعل، ولكن هذا لم يكن أكثر ما ألمه؛ فقد سبق له الموت، ولكن أشد ما أحزنه هو شعوره بالخيانة... بأن الطعنة تأتيه من حيث لم يظن أبدًا، ولا يملك الدفاع عن نفسه.
ترك ميري وسار في المدينة، لم يكترث كثيرًا إن رآه أحد أم لا.
امتص دماء الكثيرين دون أن يكترث بأن يلاحظ هذا الأمر، ولكنه كان شرهًا للدماء بطريقة لم يعهدها من قبل، قتل خمسة أو ستة؟ لا يدري؛ فهو لم يهتم بالعد.

الفصل التاسع

عاد للقلعة قبل الشروق، تذكر أنها كانت تريد مياهً؛ فحمل إليها الكثير من حاويات المياه حتى أنه لم يعد هناك مكان ليضع فيه المزيد.

كان يتصرف بطريقة هستيرية مبالغ فيها؛ فقد أفقده كلام ميري توازنه.

كانت نوال نائمة نومًا متقطعًا، ولكنها لم تستطع أن تقوم؛ فقد أرعبها كثيرًا، ولا تريد أن ترى تلك النظرة ثانية.

أحست بحركاته المضطربة في المكان؛ فزاد خوفها، تكورت في مكانها، وضمت رجلها إلى صدرها بشدة، وأخذت تهتز اهتزازات خفيفة؛ لتخرج من رأسها كل الخيالات المرعبة التي بعثتها نظراته بداخلها، بعد فترة هدأ كل شيء، فرفعت رأسها قليلًا لترى ماذا حدث.

وجدت الكثير من حاويات المياه، ابتسمت لتذكره أن يحضر لها الماء الذى أرادته، وبحثت عنه بعينيها في الغرفة؛ فلم تجده. قامت وفتحت إحدى الزجاجات وشربَت منها.

قامت نوال تتجول في المكان لتبحث عنه؛ فقد شعرت أنه ليس سيئًا كما يبدو، وجدت كل الأبواب كما هي مغلقة، ولم تجده في أي حجرة.

ترددت قليلًا قبل أن تقرر أن تنزل السلالم لتبحث عنه بالأسفل، فقد كان طوال الوقت يقيدها في مكانها بنظراته المخيفة، فعلى الرغم من جمال شكله فلو رأته في أى مكان لظنّته فنانًا؛ لما به من رقة في المظهر، باستثناء نظرة مرعبة، كان فضولها يدفعها لتستكشف المكان؛ فقررت في النهاية أن تنزل.

نزلت السلالم تتخفى حتى يتسنى لها التراجع لو وجدته، حتى وصلت للقاعة الرئيسية، كانت أجمل بكثير من الحجرة الفارغة التى حبسها فيها، فهي مزينة بنقوش على السقف، ولوحات تبدو تاريخية، المكان كله بدا لها أثريًا.

أخذت تتجول في المكان، كان فارغًا، ولكن يبدو كأن شخصًا ما قد أفرغه من أثاثه، فهو به الكثير من الصور، ولاحظَت أنه يوجد فراغ بالصور أيضًا، صورٌ لرجل شديد الشبه بخاطفها، يبدو فيها يضحك مع شخص ما يطوقه بيديه، ولكن يديه تبدو خالية، ويطوق الهواء، لا يبدو عليه الجنون، كما أن نظراته كلها حب.

وضعت الصورة، وقالت: ربما كانت تجربة تصوير من نوع ما.

وجدت بابًا مغلقًا... حاولت فتحه، ولكنها لم تستطع، طرقت عليه عدة طرقات، و اقتربت لتسمع إن كان بالداخل. خرج لها؛ لكي لا ترى ما بداخل الحجرة. أمسك الباب جيدًا بيده بعد أن أغلقه.

قال: ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟

قالت نوال: جئتُ؛ لأشكرك على المياه.

لا داعي للشكر؛ فقد أخبرتك من قبل أن تطلبي ما تريدين فقط، وسوف أنفذه لك.

لاحظت تغير عينيه، بدت أكثر حزنًا وألمًا... بدت أكثر انسجامًا مع ملامح وجهه.

قالت نوال بتردد: لم أعتد أن أطلب من أحد من قبل.

- تعودي إذًا.

قالها محاولًا أن تبدو لهجته لا مبالية كالسابق، ولكنه فشل.

قالت نوال بلهجة ودودة: تبدو مشرقًا، ووجهك نضر؛ فقد كنت شاحبًا هذا الصباح.

قال، وقد أربكه إثارة هذا الموضوع مع بشري: شكرًا.

قالت نوال: ولكنك تبدو حزينًا، ويائسًا على الرغم من ذلك.

قال بضيق: هذا ليس من شأنِك، فلتعودي لأعلى وتجلسي في مكانك؛ ليتسنى لي أن أستريح قليلًا.

قالت نوال، وقد عادت لها حدة طبعها:

- حسنًا، ولكني أريد استخدام الحمام.
- لمَ؟
- إنك غريب، تُرى لمَ يحتاج الناس للحمام؟

قال بلا مبالاة: لا أدري.

قالت بسخرية: ألا تذهب للحمام؟

قال، وقد قرر أن يتوقف عن اللعب بها:

حسنًا، سأحضر لك واحدًا.

متى؟ فأنا أريده ضروري، ولمَ تُحضر؟ ألا يوجد واحدٌ بالمكان؟

لا أظن.

قالت نوال، وهى تتلفت حولها:

إنه يبدو مكانًا أُسّس لعائلة؛ فلا بد يكون به أكثر من حمام.

تذكر أن والده قد عاش في هذا المكان مع أمه البشرية، وفكر أنه من المؤكد أن أباه قد أعد المكان ليناسب احتياجاتها، كما أنه لم يفكر يومًا في التجول في المكان؛ فلولا وجود تلك البشرية البائسة لما فكر في نقل تابوته لمكانٍ آخر أبدًا.

قال: معك حق، لنبحث عنه.

قالت نوال: ابدأ أنت من هنا، و أنا من هناك.

وأشارت للاتجاهات تفرقًا، وأخذت تفتح الغرف، أصابها الخوف وعادت له.

قالت نوال: من الأفضل أن نذهب معًا.

عرف أنها خائفة؛ فهذه طبيعة البشر... الخوف من لا شيء، وترك الأشياء التى تستحق الخوف حقًا دون اهتمام.

فتحا عددًا من الغرف، كانت كلها فارغة تمامًا حتى وصلا لغرفة بها مهد صغير

بجانب المدفئة، وبجانبه كرسي، وسرير متوسط الحجم بآخر الغرفة. يبدو أن أحدًا نام عليه من فترة طويلة ونسي أن يعيد ترتيبه.

اقتربت نوال من السرير، وقالت: أيمكنني أن أنام عليه؟

ولمسَت مفرش السرير؛ فتفتت في يدها، كأنها رماد، فزعت، وتراجعت خطوة للخلف.

رآها، فقال: إنها قديمة جدًا كما يبدو.

رفعت الوسادة، فوجدت تحتها صورة لذلك الشاب الموجود بالصور الأخرى وفتاة جميلة، تبدو الصورة قديمة، ولكن وجودها تحت الوسادة حفظها من التلف فكانت واضحة.

قالت نوال في حماس: انظر ماذا وجدت؟

اقترب منها وأمسك الصورة، وتأملها؛ فهذه أول مرة يرى فيها أمه، "إنها جميلة" صدرت منه بصوت مسموع لم يتعمده.

قالت نوال:

وهو أيضًا، إنه يشبهكَ كثيرًا، في الحقيقة كلاهما يشبهاك؛ فلك عيناها وفمه، ربما يكونان جدّيك، أو يصلُك بهما نسب.

نعم.

قالت نوال، وقد أثرت فيها نظراته الحالمة للصورة؛ فقد بدا أكثر رقة مما كانت تظن:

إنك غني إذًا؛ فلست مجبرًا على الاستمرار فيما تفعله؟

لمَ تقولين هذا؟

المكان هنا يبدو أثريًا، فلو فكرت في بيعه؛ لأصبحتَ غنيًا جدًا.

ولمَ يبيع أحد بيته؟

ربما حين لا يعيش فيه مثلما تفعل.

من قال أنني لا أعيش هنا؟!
إنك لا تعرف مكان أي شيء هنا.
لأنى لا أريده؛ فلمَ الفضول؟ فأنا أعيش بحجرة واحدة.
إنه استراحة لك؛ فأنا لا أظن أنك تعيش هنا، ربما كان مكانًا تقابل فيه النساء مثلًا بعيدًا عن حياتك الاجتماعية.
ضحك ساخرًا من خيالاتها:
يمكن أن تعملي بالتأليف بدلًا من أبحاثك تلك.
قالت نوال بحدة:
وما عيب أبحاثي؟
لا أدري، ولكنه عمل جَرّ عليك الكثير من المشاكل.
قالت نوال بانفعال بالغ:
إنني لن أتخلى عن علمي؛ فهو حياتي، ورسالتي، ولن تستطيع التأثير عليّ.
إهدئي قليلًا؛ فأنا لست مهتمًا بالتأثير عليك، ولا مهتم بك أنتِ شخصيًا، ولا بعملك هذا.
بالرغم من تصرفاتك الفظة معي إلا أنني أحسّكَ حبيسًا معي هنا، ولستَ سجانًا لي.
شعر باضطراب لمعرفتها بعجزه. قال بغضب:
هلا كففتِ عن الثرثرة، و ابحثي عن ذلك الحمام الذي تريدينه؟
فتحت بابًا صغيرًا متصلًا بالحجرة، وقالت في سعادة:
ها قد وجدته.
ثم أكملت بنظرة توسّل لا تخلو من الدلال:
هل ستساعدني في تنظيفه؟
حسنًا.

أحضر أدوات تنظيف، ومنظفات للأرضيات، وأغراض نظافة شخصية لي، وملابس لي، وأحضر بعض المناشف، ومفرش جديد للسرير، ومعطر للجو؛ فالرائحة هنا عتيقة.

اكتبي لي ما يلزمك، وسوف أحضره لك، ولكن اكتبي كل شيء بدقة حتى لا أبدو كالأحمق؛ فليس عندي فكرة عن تلك الأشياء.

لن تكون حتى لو حاولت.

ابتسم لها؛ فارتبكت قليلًا، فقد خرجَت منها الكلمات دون تفكير، قالت لتنهي تلك اللحظة:

فلتحضر أيّ صنف، فهذا غير مهم.

قال -ولا زال محتفظًا بابتسامته-:

حسنًا، سأذهب لجلب ما تريدين، ولتفعلي هنا ما يحلو لكِ، اعتبريه بيتك فقد تطول إقامتك به.

لم تشعر ببغضٍ له ولا بغضب، وهو يذكر أنها ستحتجز هنا لمدة طويلة، ولكنها شعرت بسعادة لقوله لها أن تعتبر هذا المكان بيتها، وأخذت ترتب، وتفكر فيما يمكنها فعله؛ ليكون أجمل بحماسٍ لا تعرف له سببًا.

الفصل العاشر

انتظر ير اقبها، وهو بشكل الوطواط حتى تغيب الشمس؛ ليستطيع الخروج وإحضار ما تريد لها. كانت تتصرف بحرية ودون خوف كالسابق، تعجب لذلك، رأها تصعد لتجلب الكرسي من الغرفة العلوية، وتضعه بالجانب المقابل للكرسي الآخر، وقالت محدثة نفسها:

لو استطعنا تحويل المهد لمنضدة؛ لأصبح لدينا منطقة نتناول فيها الطعام، ولكن أين نصنع الطعام.

تلفتَت حولها؛ فرأت ممرًا صغيرًا بالجهة المقابلة للحجرة، أمسكت الشمعة وسارت خائفة، دخلت الممر، لم يكن طويلًا، وجدت بنهايته -كما توقعَت- أدوات مطبخ قديمة جدًا، ولكنها كانت سعيدة بوجود أواني وأكواب وملاعق، جمعت بعضها وحملتها للحجرة؛ حتى تنظفها حينما يعود.

كان مستمتعًا بمشاهدتها؛ فقد صارت مشاهدتها الآن أكثر إمتاعًا من ذى قبل؛ فحياتها السابقة كانت بلا حماس ولا حركة، كانت تراقب وتتابع من بعيد تجاربها. ابتسم لحركاتها الطفولية، ومحاولاتها اليائسة لفتح الشباك المغلق، إنها لا زالت ضعيفة بالرغم من حماسها.

قالت نوال بعد أن أعيتها المحاولات:

إنه تأخر كثيرًا، سيحل الليل وهو لم يحضر بعد، إنه يستمتع بوقته في مكانٍ ما، ويتركني هنا.

كسا وجهها حزن بريء، جلست واضعة يدها على خدها، وسالت دموعها في صمت. بدت له جميلة جدًا، وأدهشه أنه لم يلاحظ هذا من قبل؛ فكل شيء بدا فاتنًا فيها بصورة لم يعهدها؛ لأنه لا يلاحظ عادةً ملامح أحد، حتى ميري التى عاشت معه مئات السنين لا يعرف ما شكل عينيها، ولا لونهما، أما نوال

فقد بدت عيناها العسلية كشعلة نار تفيض منها الماء. إنها معجزة في الخلق.
لم يدرِ ما الذى أثار فيه كل هذه الأفكار والأحاسيس، ربما كانت الدموع؛ فهو لم يشاهد دموعًا بهذا القرب من قبل؛ فهو لا يبكي ولا ميري، ولا ينظر لضحاياه ليعرف إن كانوا يبكون أم لا، تمنى لو كان بستطاعته لمس دمعة واحدة فقط؛ فربما كانت تزيل همه كله.
غابت الشمس؛ فخرج مسرعًا؛ ليعود إليها سريعًا.
قالت البائعة : هل أنت ساكن جديد هنا؟
قال: نعم.
حمل الأشياء التى بدت للبائعة كثيرة جدًا دون عناء ملحوظ.
قالت البائعة له مغازلة: يبدو أنك قوي جدًا، هل تمارس الرياضة؟
نعم، اعذريني؛ يجب أن أنصرف.
غادر قبل أن يسمع ردها، و ابتسامتها الحالمة المودعة له.
أدخل المشتريات للحجرة، وهو سعيد مبتسم ابتسامة واسعة، لكنه وجدها قد انطفأ حماسها، وبدت منهكة القوى.
قال: إن الأشياء كانت ثقيلة جدًا.
لم ترد، فقال: لدرجة أن البائعة سألتني إن كنت أمارس الرياضة؛ لأستطيع حمل كل تلك الأشياء.
قالت نوال: آه البائعة.
نعم، لقد قالت لي أني قوي جدًا.
وأخذ يقوم بحركات استعراضية لعضلاته حتى يضحكها.
قالت، وهي تقاوم رغبتها في الضحك: إن مزاجك معتدل؛ فهل كانت البائعة جميلة جدًا لهذا الحد؟
لا أدري ما شكلها؛ فأنا لا ألاحظ الوجوه، إنما بدت لي أكثر امتلاءً منك.

قالت في غضب: وهل سألتُكَ المقارنة بيننا؟
لا تغضبي؛ فقد كنت أمزح معكِ فقط.
سكتت وقد هدأت ثورتها، ونظرت للأشياء التى أحضرها، وقالت:
اذهب، وأحضر الأريكة من أعلى أيها القوي.
حسنًا أيتها النحيفة.
ضحكت، فقد انصرف قبل أن يتسنى لها الرد؛ فهو يفعل ذلك دائمًا... ينصرف بسرعة.
نزل حاملًا الأريكة، وقال: أين أضعها؟
قالت نوال، وهي مشغولة في إفراغ حقائب المشتريات:
بجانب السرير، الآن اذهب وأحضر لي الماء من أعلى، الكثير من الماء.
أمرك.
عاد حاملًا حاوياتان كبيرتان للمياه، كانت نوال قد أخرجت أدوات التنظيف، و أبعدت كل شيء آخر، وضع لها المياه قرب أدوات التنظيف.
قالت، وهى تنظر لكمّ العمل الذي يتطلبه تنظيف الحمام:
ألن تساعدني؟
وما الذي أفعله الآن؟
هل يمكنك الذهاب مرة أخرى لشراء الأشياء الناقصة؟؛ فيبدو أن جمال البائعة قد أنساك ما طلبته منك، ولتعد سريعًا.
حسنًا، ولكن فلتكتبِي ما تريدين هذه المرة حتى لا أنسى شيئًا.
أحضرت ورقة كانت قد دوّنت بها ما تريده للطهو، ثم أضافت عليها بعض الأشياء، وأعطتها له.
نظر للورقة و ابتسم بمرح، وقال:
يبدو أنكِ تنوين التخلص من لقب النحيفة.

قالت، وهى تبتسم لدعابته:
بل أريد أن أخلصكَ من لقب الشاحب.
ضحك و انصرف؛ فهي لا تدري أيّ ثمن ستدفعه لو أرادت أن تخلصه من شحوبه، ولكنه لم يعد يرغب في إيذائها كالسابق.
تذكر أنه لم يعد ينظر للساعة منذ فترة، وذكّر نفسه أن يعدّ لها مكانًا آمنًا في الحجرة التى يعدانها.

الفصل الحادي عشر

سار في الشوارع يشاهد واجهات المحلات؛ ليحضر ما طلبته منه نوال. لفت نظره ثوبٌ جميل، لونه أحمر قاني مكشوف الكتفين، وقصير تحت الركبة بقليل، ويتسع من بعد الوسط لأسفل.

لاحظت البائعة وقوفه، فخرجت ترحب به.

قالت البائعة: إنه الأخير لدينا، هل تريد أن أحضره لك؟

قال في تردد: نعم أحضريه.

ونظر لحذاء أحمر اللون ذي كعب عالٍ، وعليه فراشة من الكرستال لامعة بجانبه، وقال: وهذا الحذاء أيضًا.

قالت البائعة: أتريد شيئًا آخر؟

قال: الأشياء المكتوبة بهذه الورقة.

وأعطاها الورقة التى كتبتها نوال.

قالت البائعة: يبدو أن زوجتك منظمة جدًا.

بل أنا الذي أنسى كثيرًا أشياءَها.

إنك زوجٌ عطوف.

ابتسم لرنين كلمة عطوف في أذنه؛ فهي كلمة جديدة عليه، لم يسبق له أن سمعها من أحد، ولا حتى ميري.

"عطوف!" إن البشر ينخدعون في المظاهر بسهولة، ألأني أشتري أغراضًا لامرأة أكون عطوفًا، فماذا ستقول عني لو علمت أني أحتجز تلك المرأة حتى أعرف ماذا أفعل بها ،آقتلها أم أبقيها؟ حتى تلك البائعة اللطيفة قد أقتلها دون أن أدري يومًا ما؛ فأنا لا أنظر لضحاياي، وربما أكون قد قتلتُ أحد أقاربها و أنا لا أدري.

يالَتعاستي؛ ما كان ينبغي لى التعامل مع البشر كما حذرتني ميري؛ فما كنت سأشعر بكل ذلك القلق، والتفكير، والتأنيب أبدًا، إنهم فعلًا بلاء على جنسنا.

عاد للقلعة، ودخل الحجرة بادي الأسى؛ فقد عكّر مزاجه كثرة التفكير في البشر، وضع الأشياء على السرير بقربها، واستلقى على أريكته ناظرًا للفراغ كعادته، ولكنه لم يستطع؛ فقد كانت الأفكار تقتحم عزلته، فرفع رأسه، وجلس مسندًا رأسه بيديه. إنه لم يعد كما كان، ولا حياته، كل شيء تغير، ولا يعرف كيف يواجه هذا التغير؟ لم يعد هناك فراغ ينظر إليه ليهدأ، فقد كان الفراغ بداخله وليس حوله، أما الآن فلم يعد فارغًا.

فتحت نوال حقائب المشتريات وهي جالسة على سريرها الجديد؛ فقد فرشته، وشعرت بالراحة لوجود مكان مخصص لها، غلبها النوم؛ فنامت، ثم شعرت بالحقائب توضع بجانبها، ور أته جالسًا على الأريكة ساندًا رأسه بيده.

قالت نوال لتخرجه من كآبته:

لقد أحضرت كل شيء، ولكني تعبتُ جدًا اليوم، غدًا أعد لك طعامًا شهيًا؛ لتعرف أني سيدة بيت ممتازة.

جاهد ليبتسم لها، ولم ينطق.

قالت في حنان: ما لك؟ ما الذي يشغلك هكذا؟ أخبرني؛ ربما أستطيع مساعدتك.

قال في ألم: لا يستطيع أي مخلوق أن يساعدني.

ليس هناك مشكلة بلا حل، وعقلين أفضل من واحد.

قال وهو ينظر في عينيها ؛عله يكتشف ما تخفيه:

أتريدين حقًا مساعدتي؟

أربكتها نظر اته المباشرة لعينيها؛ فهي لم تعتد على أن ينظر إليها أحد هكذا:

نعم، لمَ لا أريد؟

قال بابتسامة ساخرة: لأني أحتجزك هنا كما تلاحظين.

أكمل وهو يبعد عينيه عنها: إنكِ فعلًا حمقاء.

أغضبتها كلماته، وهمّت أن ترد له الإهانة، ولكنها لسبب لا تعرفه أشفقت عليه؛ فقد كان يبدو عليه أنه يحمل ألمًا عظيمًا، وما يفعله ويقوله لا يعدو ترنحًا من شدة الألم.

وضعت يدها على كتفه، وقالت: لقد أخبرتك سابقًا أني أحسّك سجينًا معي، وربما أكثر مني، فلم أستطع أن أصدق أنك تحتجزني، فأنت لا تبدو لي شخصًا يفعل مثل تلك الأمور.

وماذا أبدو لكِ إذًا؟

تبدو شخصًا لطيفًا عاش حياة قاسية.

قال بابتسامة ساخرة من نفسه؛ فلم يستطع الاستمرار في مهاجمتها بعد:

إنكِ فعلًا حمقاء.

قالت بحنان: و أنت مسكين.

قال ليغير مجرى الحديث: هل رأيت الملابس التى أحضرتها لك؟ لم أعرف ما شكلها؛ فقد أعطيت البائعة الورقة، وهي أحضرت كل شيء.

ألا تشتري سوى من بائعات؟

قال، وقد فهم ما ترمي إليه:إنه محل لمستلزمات نسائية؛ فمن سيقف ليبيعها؟

ابتسم، و أكمل: لقد ارتبكتُ كثيرًا و أنا هناك.

لمَ؟ ألم تشترِ هدايا لصديقاتك من قبل؟

قال دون أن يعي ما ترمي إليه: ليس لى سوى صديقة واحدة.

امتقع لونها، لم تكن تدري كيف تكمل الحديث معه دون أن يظهر عليها شيء، سكتت وأخذت تخرج الملابس، ثم صادفت يدها الحقيبة الموجود بها الثوب الأحمر، لمعت عيناها، وقالت:

يبدو أن للبائعة ذوق رائع.
لا، إنه من اختياري هو وهذا الحذاء.
أخرج الحذاء من حقيبة أخرى، وقال:
لا أدري لمَ لفتا نظري، وشعرت أنهما سيبدوان رائعان عليك.
ولكنهما لا يشبهاني؛ فأنا لا أرتدي مثل تلك الأشياء.
لمَ؟ إنكِ جميلة، ومسلية، ومزعجة، إن اللون الأحمر يليق بكِ كثيرًا.
ابتسمت، وقالت وهى تقلب في باقي الأغراض:
هناك العديد من الملابس الأخرى التي يمكنني ارتداءَها، ولكن هذا الثوب، والحذاء سأحتفظ به.
ولكني تخيلته عليك؛ لذا اشتريته، على الأقل جربيه.
لا أستطيع، ولكني أعدك ألا أرتديه إلا في المناسبات الهامة.
سرحَت قليلًا، فقال: فى ماذا تفكرين؟
فى المناسبات التي تصلح لمثل هذا الثوب، فهي لا توجد في حياتي، إنك لا تعرفني جيدًا؛ لتتوقع أنني يمكن أن أرتدي ثوبًا أحمر وحذاءً أحمر عالي الكعب؛ فهذه ليست أنا، أعطيهما لصديقتك ربما تستفيد منهم أكثر مني.
ميري لا تحتاج لشيء منّي.
اسمها ميري؟.
نعم.
أجميلة؟ صفها لي.
لا أدري؛ فقد أخبرتكِ سابقًا أني لا أركز في ملامح أحد، إنها سيدة رقيقة، وتحبني أكثر من أي شيء آخر.
قالت بلهفة حاولَت إخفاءَها:
و أنت هل تحبها؟

قال ببساطة:

بالتأكيد؛ فهي كل ما لديّ في هذه الدنيا، فلولاها لمَا كان لي حياة ولا وجود.

قالت لتنهي الحديث قبل أن تغلبها دموعها، فكلماته تعتصر بداخلها الأمل في أن يشعر بما يتكون بداخلها من إحساسٍ جميل، لم تكن تعرف أنه موجود:

تصبح على خير؛ فقد تأخر الوقت كثيرًا، وأوشك الصباح أن يطلع.

قال بحنان صادق:

تصبحين على خير.

الفصل الثاني عشر

استيقظَت نوال في نشاط؛ لتكمل تجهيز الغرفة، وتعد له الأفطار؛ فهي تعرف أنه لازال نائمًا بالرغم من عدم رؤيتها له، الغرفة المغلقة كانت تملؤها بالتساؤلات، لمَ هو حريص عليها هكذا؟ فهي المكان الوحيد الذى يحرص على إغلاقه جيدًا، ولا يجعلها تلمح ما بداخلها. لم تشأ أن تزعجه بالسؤال عن حجرته المغلقة؛ فهي لا تريد إزعاجه ثانية. كان قد أحضر لها موقدًا صغيرًا مخصصًا للرحلات، فأشعلته، وأحضرت السكين، وبدأت تجهز الخضروات.

فاجأها دخوله المبكر عليها، فهي لم تتم بعد إعداد الطعام.

قال: ماذا تصنعين؟

أعدّ لنا الفطور.

قال، وهو يتحاشى النظر لعينيها: لا تعملي حسابي؛ فسوف أفطر بالخارج.

هل ستتناول الإفطار مع ميري؟

قال دون تردد؛ فقد وجد فيها مخرجًا مناسبًا: نعم، لقد اعتدنا على ذلك.

قالت بيأس: حسنًا، أأنتظرك على الغداء؟.

لا.

خرج قبل أن تقول شيئًا آخر؛ فهو لا يملك القدرة على مجارتها في مثل تلك الأحاديث التى لا يجريها عادةً.

تحول عندما خرج من القاعة لخفاش، ووقف على خشب السقف ير اقبها، وقد أطفأت الشعلة، وتركت كل شيء، وجلست تبكي، ثم نامت محتضنة الثوب والحذاء الذى أحضرهما لها.

آلمته مشاهدتها حزينة هكذا، ولكنه لا يستطيع الأكل، ولا يريد أن يخبرها حقيقته؛ فهي تبدو جاهلة تمامًا لمَ يكون.

تذكّر حكاية والده، وفكر؛ تُرى ما الذي جذب والده لتلك البشرية التى أحبها؟ كانت نوال تبكي، فلا تشك بأن هناك من ير اقبها، كان لا يدري لمَ تبكي كثيرًا هكذا كلما تركها وحدها؟ فهي لم تكن تبكي قبل أن يحضرها إلى هنا، تُرى هل وجودها بالقلعة يحزنها؟ فكر قليلًا، وقال:

أكيد، إنها رهينة لديّ؛ فلمَ أظنها قد تشعر بالأمان والراحة هنا؟.

تذكر كلام ميري، شعر أنه لا يمكن أن يحتجز نوال للأبد، ولا يعتقد أنها ستؤذيه يومًا؛ لذا قرر أن يزور ميري حين يحل المساء.

مسحَت نوال دموعها، وقامت تجمع الأواني، وتعيد الخضروات داخل أكياسها ثانية، ثم دخلت الحمام، قربت الشمعة لوجهها؛ لتراه جيدًا في المرآة. لمسَت بشرة وجهها، وتحسست شعرها، وقالت:

لابد أنها جميلة جدًا، ولا يمكنني منافستها.

تنهدت، وقالت: حتى لو لم تكن، فأنا لا أعرف المنافسة في مثل تلك الأمور، فأنا أنافس في العلم والأبحاث والتجارب؛ فهذا ما أعرفه، أما الحب...

سكتت فقد كان للكلمة رنين عذب لم تسمعه من قبل خفق له قلبها، وضعت يدها على قلبها، و ابتسمت في ألم، وقالت:

فلنعدّها تجربة علمية بغرض معرفة إن كان بإمكاني الحب أم لا، وقد نجحَت، وليس من المعقول أن تستمر التجربة للأبد.

خرجَت من الحمام، وجلست على الأريكة، ونظرت للسقف مثلما يفعل؛ علّها تعرف سبب كثرة جلوسه هكذا، وجدت خفاشًا ينظر إليها، أرعبها في بادئ الأمر؛ فلم ترَ سوى عينيه تلمعان في الظلام، ولكنها رفعت الشمعة؛ فرأته، قلَ خوفها، تأملته؛ فقد بدا مألوف لها بالرغم من أنها لم ترَ خفاشًا على الحقيقة من قبل .

وضعت له بعض الجبن، ثم تذكرت أنه ليس فأر، و أنه يمتص الدماء؛ فعاودها خوفها، أشعلت أكبر قدر من الشموع، والموقد حتى تخيفه ويبتعد، ولكنه لم يفعل ظلّ و اقفًا ينظر إليها. كانت تنظر للساعة الرملية التى أحضرها ووضعها فوق المدفأة، ولا تفهم شيئًا، فكم الساعة الآن، وكم مضى من الوقت، تمنت لو يحضر، ليس لإبعاد الخفاش، ولكن لأن وجوده معها يشعرها بالأمان.

لاحظ نظراتها البلهاء لساعته؛ فهي لا تعرف ما أهميتها، وأهمية الزمن الذي تحسبه.

أمسكت الدفتر والقلم، أخذت تكتب صيغ ورموز لمعادلات علمية لم يفهمها، ولكنه أحس أنها تهدئها، فقد تبدل الحزن الذي في عينيها إلى حماس، وفكر؛ أتكون وسيلتها في القضاء عليه تلك الصيغ والرموز؟ فهي سلاحها الوحيد، وقد سبق وسبّب لها العداء مع من أرادوا قتلها. طار خارجًا، فقد قرر أن يمضي معها بعض الوقت قبل أن تغيب الشمس، ويذهب لميري.

دخل الحجرة، وقال لنوال: كيف حالك؟

رفعت نوال رأسها، وجدته مبتهج؛ فشعرت بالغيرة؛ فقد ظنته أتى من عند ميري:

بخير.

قال برفق وهو يجلس بجانبها، وينظر بالدفتر الذي تكتب فيه: ماذا تكتبين؟

قالت بحدة: هذا ليس من شأنِك.

رفع وجهها إليه، وقال: ما بال عيناكِ حمراء هكذا، أكنتِ تبكين؟

قالت، وهي تحاول التمسك بغضبها حتى لا تضعف أمام رقته:

وهذا أيضًا ليس من شأنك.

قال، وهو يبتسم لها: حسنًا.

أستدار، وبعد عنها بخطواته قليلًا، وقال: لقد أردت أن أسألك إن كنت تريدين الخروج، ولكن يبدو أنه ليس من شأني.

قالت بلهفة: الخروج!.

قال، وقد آلمه سعادتها بفراقه: لم أكن أعرف أنكِ مستاءة لهذا الحد من وجودك هنا.

- قالت في ارتباك: لم أقصد، ولكن...
- لا داعى للتبرير؛ فأنا محتجزك، وأطالبك أن تُظهري الرضى عن ذلك.
- حسنًا، لقد كنت غاضبة في بداية الأمر، ثم وجدتك لستَ سيئًا جدًا.
- صمتَت نوال قليلًا لتستوعب الأمر، وقالت: هل قرروا إطلاق سراحي؟
- من الذين قرروا؟
- العصابة التي تحتجزني لصالحهم.
- قلت لكِ سابقًا أنه لا يوجد عصابة أعمل معها.
- لماذا تحتجزني إذًا؟
- إنها قصة طويلة، سأخبرك بها حين يحين الوقت.
- أتعني أنك تحتجزني بإرادتك دون أن يجبرك أحد على ذلك؟
- لا؛ أنا مُجبَر، ولكن لا أستطيع إخبارك السبب الآن.
- شعر بحيرتها، وغضبها المكتوم؛ فقال ليبدد التوتر الذي ساد المكان:
- دعينا من ذلك، لم تخبريني، أتريدين الخروج؟
- إلى أين؟
- إلى الشاطئ.
- حسنًا لنذهب غدًا؛ لأستمتع بالشمس، فقد نسيتها.

- إنني أحب البحر في المساء؛ فهو يكون هادئًا.
- هل تشاورني، أم تفرض علىّ قرارك؟
- لا، إن لم تريدى الخروج؛ فلنفعل ما تريدين.
- لا أحب الخروج ليلًا.
- لا تخافي؛ سأكون معك.
- لو لم نخرج في الصباح لا أريد الخروج.
- قال، وقد أصابه كلامها بخيبة أمل:
- حسنًا، لقد أردت الترفيه عنكِ، ولكني لا أستطيع الخروج بالنهار.
- فلن نخرج إذًا.
- تركته وحملت الشمعة، ودفترها، وقلمها، ودخلت الحمام.
- قال لها:
- أستكتبين في الحمام؟
- إنه المكان الوحيد هنا الذي يمكننى الجلوس فيه بمفردي.
- إنني ذاهب لميري؛ فلا داعي لمغادرتك الحجرة.
- ألم تعد من عند ميري تلك لتوك؟
- إنها ترحب دائمًا ببقائي معها.
- إنها تبدو لي ملاكًا من كلامك عنها.
- إنها فعلًا كذلك.
- قالت بغضب: حسنًا، اذهب لها.

خرج، وأغلقت الباب وجلسَت خلفه تبكي .

الفصل الثالث عشر

ذهب لزيارة ميري. استقبلته بفرحة كبيرة؛ فقد ظنته لن يزورها ثانية بعد ما حدث في آخر زيارة له.

- قالت ميري: كنت أنوى زيارتك لو لم تأتي، بالرغم من بغضي للتواجد مع البشر في مكان واحد.
- لا عليك؛ فلا أجد لخوفك الشديد من البشر مبرر.
- ألم أخبركَ بما فعلوه بنا؟
- بلى فعلتي، ولكن نوال واحدة، وليست حشود غاضبة ستحرقك، إننا من يجب أن تخاف منا بحق، وليس العكس.
- قالت، وهى تبتسم بسخرية:
- نوال، منذ متى تعرف أسماء البشر؟
- إنكِ تعرفين أهميتها لي؛ فأنتِ من ورطنى بها؛ فلا تتهميني.
- أنا لا أتهمك، ولكني أتساءَل فقط.
- حسنًا، اسمها نوال، وأصبحتُ أعرف أسماء البشر منذ أخبرتيني أن نهايتي على يد أحدهم، أهذه إجابة مناسبة؟
- ألا تزال غاضبًا مني؟
- اقتربت منه، وقالت: إن الأمر ليس بيدي؛ فلا تقسو عليّ هكذا، فأنت كل ما لي في الدنيا.
- حسنًا دعينا من هذا الكلام، وأخبريني، هل عرفتِ شيئًا جديدًا؟
- قالت، وهي تتأمله: لم يعد عندي جديد، الجديد عندك أنت.

- أنا! ومن أين لي بمعرفته؟
- أليست البشرية عندك؟ ماذا لاحظت عليها؟
- لا شيء.
- أي شيء يمكن أن يفيدنا.
- إنها ضعيفة، ولا يمكنها إيذاء أي مخلوق.
- هل يمكنني رؤيتها؟
- نعم، فأنا أكلمها كثيرًا عنك
- .تكلمها كثيرًا!.
- ليس كما تظنين، أتريدين الذهاب الآن؟
- لا، أخبرها ما دامت تعرفني أني سأزوركما غدًا في الصباح، فلا أظنك مازلتَ ترتاح بالنهار.
- حسنًا، سننتظرك.

غادر وقد أدخل الشك قلب ميري؛ فقد كان مختلفًا عمّ اعتادته، عادت لإعداد التركيبات السحرية، ولكنها كانت شاردة الذهن؛ فأخطأت في النِّسب، فحدث انفجار عمّت على أثره الفوضى المكان.

عاد للقلعة، وجد نوال نائمة وهي محتضنة الثوب والحذاء، ابتسم؛ فكم بدت بريئة الملامح، ولكنه اغتم لرؤية آثار الدموع على خدها.

لو أعلم فقط كيف أجعلها تكفّ عن بكائها؟

تململت نوال وفتحت عينيها، وقالت:

- إنك هنا.

لم تكن استيقظَت تمامًا بعد.

- قال: نعم.
- قالت، ولا تزال ناعسة: لا تذهب، ابقَ معي.

لمس خدها ليمسح آثار الدموع؛ فعادت للنوم ثانية، لم يرغب أن يوقظها؛ فجلس على الكرسي أمامها حتى تصحو ويخبرها بزيارة ميري لهما.
جلس يتأملها وهي نائمة، ويبتسم لصدى ابتسامة تظهر على شفتيها وهي نائمة بين الحين والآخر؛ فعلم أنها تحلم حلمًا جميلًا، فأسعده أن تحظى بوقت هادئ جميل حتى لو في الأحلام.
استيقظَت نوال، ووجدته جالسًا على كرسي بجانب السرير ينظر إليها، اعتدلت وقالت:

- صباح الخير على ما يبدو.
- ليس صباحا جدًا، ولكن لا بأس.

قامت متجهة للحمام.
قال: سيأتينا زائر اليوم.
قالت من داخل الحمام: مَن؟
ميري، فهي تريد أن تراكِ.
لم ترد، فأكمل مازحًا: إنها فرصة لترينا مهاراتك في الطهو.
خرجت بادية الغضب، وقالت: أأخبرتها عنّي؟ وماذا قلت لها يا تُرى؟ هل أخبرتها لمَ أنا هنا؟
قال، وقد شعر بحمق ما يجرى: نعم، إنها تعرف كل شيء.
قالت باشمئزاز: أنا لا أعرف أي نوع من البشر أنتم.

ابتسم ساخرًا لقولها عنهما بشر، ولكنها ظنّته يسخر منها، فقالت: إنكم مرضى، ويجب أن تُعالجوا.

أمسكت السكين الذي تعد به الطعام ووضعته على صدرها، وقالت:

- إن لم تخبرني لمَ أنا هنا سأقتل نفسى.
- سنخبرك كل شيء عندما تأتي ميري؛ فهي تعرف كل شيء أكثر مني.
- إنك تعمل لحسابها إذًا.
- لا يوجد أحد في الكون يُملي عليّ تصرفاتي.
- قالت، وهى تكذّب قلبها: إنك مجرم إذًا.
- قال، وقد استغرقته الكلمة: نعم أنا كذلك.

جلسَت على الكرسي، وقالت بتحدي من ليس لديه ما يفقده:

- لن أتحرك من مكاني حتى أعرف لمَ أنا هنا؟
- وماذا ستستفيدين من ذلك؟

أشاحت بوجهها بعيدًا عنه، وقالت: لن أتحدث معك ثانية، انتهى الأمر.

- كما تشائين.

جلس على الأريكة ينظر إليها مندهشًا للتغير الذي حدث لها، وندم على تذكيره لها أنها رهينة لديه، وعاتب نفسه؛ لعدم تركها تشعر بأن هذا المكان لها وحدها.

الفصل الرابع عشر

حضرت ميري ولم تبرح نوال مكانها، زاد النور في المكان عندما دخلته ميري؛ فهي لا ترى في الظلام مثله؛ لذا اعتادت على القيام بتعويذة الضوء كلما زارته حتى أصبحت عادة عندها؛ فقامت بها فور دخولها القلعة دون تفكير.

تأملتها نوال، وجدت ميري فاتنة، أجمل مما توقعت، لم تستطع النطق من مرارة الصدمة، كان يجب عليها الآن رؤيتهما معًا، بدا ساحران، لم يشوب مظهرهما شائبة، أما هي فشعرت أن وقوفها معهما سيفسد اللوحة الرائعة الجمال.

قالت ميري: أهذه...

سكتت قليلًا مدعية نسيان اسمها، ثم أكملت:

معذرة؛ فأنا لا أتذكر الأسماء كثيرًا.

قال بحزم حتى يتفادى الصدام بينهما: نوال... اسمها نوال يا ميري.

قالت ميري بلهجة متعالية: آه... نوال، كيف حالك؟

نظرت لها نوال شذرًا، ولم تتكلم.

بادلتها ميري النظر بخبث، وقالت:

مسكينة، لمَ لا تتكلمين؟ هل أكل القطّ لسانك؟

قالت نوال في غضب مكتوم: لمَ أنا هنا؟

قالت ميري ساخرة: لنستمتع بصحبتك.

قال في حدة؛ ليوقف ميري عن الاستمرار في السخرية:

أخبريها لمَ أحضرتها إلى هنا؟

نظرت له ميري نظرة قاسية لم يراها منها من قبل، وقالت:

ما الذي أصابك؟ هل جننت؟ أُخبر مَن؟ تلك الحمقاء؟

وقفت نوال في غضب، وقالت: لا أسمح لكِ بتجاوز حدودكِ معي.
قالت ميري بلهجتها الساخرة، ولكنها كانت محتدة، ومستعدة للإيذاء:
ماذا ستفعلين؟ وما الذي يمكنك فعله أصلًا؟ انظري لنفسك، إنكِ لا شيء.
شعر أن هجوم ميري أكبر مما يستدعي الموقف، ولم يكن يتوقعه، كما أن نوال قد احمر وجهها من الغضب، ولكن عيناها بهما الكثير من الألم، أشفق على نوال، وغضب من ميري؛ فأمسك يدها، وقال:
ما سبب كل هذه الثورة؟ اهدئي؛ فلن نصل لشيء بتلك الطريقة.
قالت ميري: لقد أخبرتكَ من قبل أنني لا أملك لكَ حلول، ولكني سأساندكَ دائمًا.
نظرت حولها، وقالت، وهي تحاول استجماع نفسها حتى لا يعرف ما بداخلها:
لماذا نزلتَ إلى هذه الغرفة؟ ألم أنهاك عن الاقتراب منها؟
قال بحدة، فهو لا يحب أن يملي عليه أحد أفعاله:
لم أذكر أنكِ نهيتني عن شيء من قبل.
قالت ميري بلطف محاولة التأثير عليه: حينما وضعتُ لكَ أغراضك بالغرفة العلوية، فهي أفضل غرف البيت. ولا أذكر هذا أيضًا؛ فقد كان ذلك منذ زمن بعيد.
قالت ميري، وقد أيقنت أن حديثها معه سيزيد الأمر سوءً:
حسنًا، سأرك عندي في المساء.
قال بلهجة جافة: لمَ؟ فقد جئتُ بالفعل.
لاحظت انفراج وجه نوال لجفاف لهجته معها؛ فأمسكت يده، وقادته للأريكة، وجلست بجانبه محتفظة بيده في يدها؛ لتوهم نوال أنهما عاشقان، وقد كان ذلك سهلًا؛ فلم يكن شكلهما يوحي بحقيقة العلاقة التى تجمعهما؛ فما كان يخطر بخلدها أنها علاقة تُبنى؛ فهذا لا يخطر على بال بشر.

على وجه نوال نظرة عرفتها ميري، فقد سبق لها الإحساس بما تشعر به عندما رأت حبيبها مع تلك البشرية التى اختطفته منها، وها هي بشرية أخرى تأتي لتخطف ما تبقى منه.

وضعَت ميري يدها على يده بطريقة استغربها، شعر بعدها بذبذبات عالية كالتى كان يشعر بها عندما اختطف نوال أصابته بالدوار، تعجب له؛ فهو لا يرى في ميري مصدر للتوتر على الرغم من كل أفعالها، إلا أنه لا يزال يراها ذلك المخلوق العطوف الذى وهبه حياة أبدية.

قال بعد أن ساد الهدوء الأجواء: أتشربان شيئًا؟ أظن أن لدينا عصير في مكانٍ ما. وأخذ يقلب في الحقائب ليجد العصير.

قالت نوال في نفاذ صبر: إنه أمامك هناك.

قال لها بابتسامة مرحة لسماعه صوتها بعد تلك المدة التى مرت عليه وكأنها دهرًا:

حسنًا، لمّ لا تحضريهم لي ما دمتِ تريهم؟ فلا أريد أن أفسد لكِ ترتيب الأشياء.

قامت نوال وأعطته زجاجة العصير محاولة أن تبدو غاضبة، ولكنها في الحقيقة قد نسيت كل الغضب بمجرد توجهه لها بالحديث، شعرت أنه لا يحب ميري مثلما كان يتحدث عنها، إنه كان معها بكل كيانه بالرغم من وجود ميري في نفس المكان.

غمرها شعور بالسعادة جاهدت أن تخفيه، ولكن ميري شعرت بما يحدث بينهما، وتأكدت لها شكوكها مما لاحظته عليه في آخر زيارة له.

إن البشرية لن تقتله، ولكنها ستسلبها إياه؛ لذا عقدَت العزم على التخلص منها مثلما فعلت بالأخرى، ولكنها لا تدري كيف يتسنّى لها ذلك دون أن تفقدَه مثل أبيه.

لملمَت طرف ردائها، وكأنها تخشى على نفسها من الدنس، ووقفت وعلى وجهها مظاهر الاشمئزاز، وقالت: لا داعي للعصير.

مالت عليه ؛لتقبله على خده، وهمسَت في أذنه، ولكنها حرصت على أن يكون صوتها مسموع لنوال: أراك بعد غروب الشمس.

ثم أكملت بصوت لا تسمعه نوال: لقد وجدتُ الحل.

غادرت وهى تشيعهما بابتسامة، كادت أن تقتل نوال حسرة قبل أن تنفذ خطتها.

قالت نوال: ألا زالتَ مصرًا على أنك صاحب فكرة اختطافي؟

قال: إن ميري ليس لها سلطة عليّ.

- حقًا؟!
- قال بغضب: ماذا تعنين بحقًا؟ ألا تصدقيني؟
- لقد بدوتَ لي و أنت بجانبها محتجزًا مثلي، لم أشعر أنك من خطّط للأمر.
- إنها خيالاتك.
- وربما كانت الحقيقة، و أنت لا تراها.
- إن كان هناك من لا يرى حقيقة الأشياء فهو أنتِ.

قالت بابتسامة ساخرة: والفضل لك.

استفزه كلامها فقرر أن يخبرها الحقيقة بالرغم من خطورة ذلك ،فقال:

- أتؤمنين بالخوارق؟
- لا.
- لمَ؟

- لأن العلم يستطيع اكتشافها لو كانت موجودة، وما دام العلم لم يخبرنا بها فهي غير موجودة.
- إنك تؤمنين بالعلم إذًا.
- نعم.
- فلا تؤمنين بوجود السحرة مثلًا، ومصاصي الدماء.

ضحكت، وقالت:

- أتسخر منّي؟ ما علاقة هذا الكلام بما كنّا نقوله؟
- لا، بل نتحدث بعيدًا عن مشاكلنا؛ علّنا نهدأ قليلًا.
- حسنًا،على الرغم من أنه سؤال ساذج، لكن لا أؤمن بوجود مثل تلك الأشياء؛ فهي أمور وليدة خيالات الإنسان؛ ليفسر بها ظواهر عَجزَ قديمًا عن تفسيرها، ولكن العلم فسّر كل تلك الظواهر.
- لو أخبرتك أني أحضرتك إلى هنا ؛لأعرف السبب الذى يربط مصيري بكِ، هل تصدقيني؟
- لا، لكن لمَ قد تظن أن مصيرك مرتبط بي؟
- لنقل أن هناك نبوءة تقول ذلك.
- ضحكت رغمًا عنها، وقالت: إن خيالك خصب، ولكن كل ذلك هراء لا وجود له، و أنا أعرف السبب الحقيقي وراء احتجازى هنا.
- قال بسخرية: وما هو؟
- قالت في تحدٍ؛ لتواجه نظراته الساخرة: إن صديقتك تعمل لحساب مافيا، أو عصابة دولية للأدوية، وقد علمَت بأمر اختراعي؛ فأسندت

إليك مهمة التخلص مني، ولكنك لم تفعل.

- لماذا؟
- قالت، وقد هدأت حدتها: لأنك لست من ذلك النوع من البشر.
- ضحك، وقال: وتُرى حكايتي هراء، إنك تَهْزِين.
- لمَ لم تقتلني إذًا؟
- لأن حياتك كانت أهم عندي من موتك.
- آلمتها نبرة الصدق في كلامه، فقالت: والآن.
- لا أستطيع قتلك.
- قالت، وهي تخفي سعادتها: لمَ؟
- لأني لا أقتل إنسانًا أعرفه.

أصابتها وخزة في صدرها من صدق نبرته؛ أنه لا يكذب، ولكن ليته كان.
لم تنطق وجلست، واسترجعت كل ما حدث ودموعها تبلل وجهها، فقالت:

- أكنتَ من خدرني في البيت؟
- لا.
- أتعرفه؟
- لا.
- قالت بصوت يرتجف: أقتلته؟
- نعم.
- قال مفسرًا:

لقد كان سيقتلك، أتذكرين المسدس الذي قتلت به الأربعة الذين

تعقبونا، وذلك الذئب الذي هاجمك في الغابة؟ إنه مسدسه، وكان سيقتلك به لو لم أقتله.

اقترب منها، وقال بصوت عميق: إنها حرب؛ فمن لا تقتله يقتلك.
نظر لها وصدى كلماته يرن بداخله، وتساءَل: تُرى أستنهي نوال حياته؛ لأنه لم يقتلها حين تسنى له ذلك؟
قامت نوال ودخلت الحمام، وملأته ماءً باردًا، ووضعت نفسها تحت الماء البارد علّها تطفئ النار التي اشتعلت بداخلها.
أخذت تتساءَل: لمَ يحدث لها ذلك؟ لم يكن الحجز والتهديد أقسى ما تعانيه، ولكنه ذلك الإحساس الساذج الذى يكذب كل ما تراه، وكل ما يحدث حتى صارت أسيرة له، فهو عدوها الذى يجب أن تحاربه، وأن تقاوم حبها الذي لا تجد له مبررًا، وأن تتوقف عن النظر لخاطفها على أنه مُجبر؛ لتبرر كل أخطاءه، إنه مجرم وكفى، يجب أن تواجه الأمر.
جلس بالخارج ممسكًا رأسه بيديه، يكاد يخلعها من مكانها لشدة انفعاله، لم يعد يفكر في مصيره ونهاية حياته، بل إن أمر الأبدية كله لم يعد يهمه؛ فكل ما يسيطر عليه هو نوال، وكيف تفكّر فيه الآن؟ تُرى أصدّقَت ما قاله، أم تراها لا زالت متمسكة بأوهامها؟
قال محدثًا نفسه:
لن تغفر لي أبدًا مهما حدث، فلو غفرَت لى ما فعلته بها لن تغفر لي قتلي لكل هؤلاء البشر، ولكن هذا كان رغمًا عني؛ فهذه وسيلتي الوحيدة للحياة، آه يا ليتنى لم أوجد.

الفصل الخامس عشر

نظر للساعة الموضوعة فوق المدفأة وجدها أوشكت على النفاذ، ولا يدري كيف يحسب الزمن المتبقي بها؛ فهو لم يفكر في ذلك إلا الآن.

مشى في الحجرة ذهابًا و إيابًا في خطوات قلقة منتظرًا ما تبقى من الشمس أن يرحل، كان يكره الشمس كثيرًا، ليس لأنها تهدد حياته، ولكن لكونها تشل حريته؛ فلا يستطيع فعل كل ما يريد وقتما يريد .لم يستطع بدأ حديث مع نوال من خلف الأبواب؛ فالوضع أصبح مستحيلًا بينهما الآن.

غابت الشمس؛ فطار لرؤية ميري، وجدها جالسة في انتظاره، ويبدو أنها كلفت نفسها عناء ترتيب المغارة، وإن كان لم يثمر كثيرًا؛ فالمكان ما زال مكدسًا بأشياء غريبة. جلس على الكرسي المقابل لها، وقال في لهفة:

- أحقًا وجدتِ حلًا لأزمتي؟
- قالت ميري بثقة: نعم.
- أخبريني إذًا ماذا تنتظرين؟
- الحل بسيط، تخلص من البشرية؛ فهي من سيقود الموت إليك، اقتلها قبل أن تقتلك.

تذكر من أين حصل على تلك الجملة الملعونة، إنها ميري.

قال: سأعيدها لمكانها، وذلك يبعد الموت عني.

قالت بحدة: لا، اقتلها، وتأكد أنها ماتت؛ فهذا هو الحل الوحيد الذي يبقيك في عالمك الأبدي، ويعيد الهدوء إلى حياتك.

قال بسخرية: أبدية وهدوء، إنها كلمات لم يعد لها نفس الرنين في أذني.

قالت بغضب: ماذا تقول؟ أتريد أن تنهي حياتَك الفريدة بشريةٌ أخرى مثلما

حدث لأبيك؟
سبق وقلتِ أن جدي هو من قتل أبي؛ فما الذي أقحم أمي في هذا الأمر؟
قالت ميري في مرارة؛ فهو يتسرب من بين يديها آخذًا معه كل ما حاربت من أجله طوال حياتها:
أمّك! أتدعو تلك البشرية الحمقاء أمك؟
سكت، فلا يريد الدخول في جدال معها، ارتبك وظهر الاضطراب عليه، وقال بنبرة بها توسل مستتر: ألا يوجد حل آخر غير موت نوال؟
قالت في تحدٍ: طبعًا يوجد.
قال بلهفة: ما هو؟ أخبريني به مهما كان.
موتك أنت.
قال في ضيق من طريقتها معه: حسنًا، لقد أوضحتِ لي ما لديك، و أنا سوف أتصرف، شكرًا.
همّ بالانصراف، رفعت يدها بحركة مفاجئة جمدته في مكانه، وقالت بصوت مخيف: شكرًا! أنك غبي أحمق، ولا تجادلني في ذلك واسمعني للنهاية، إن لم تقتل تلك البشرية التافهة سوف أقتلها بنفسي، وهذا عليّ هين، و أنت تدري.
وضعت يدها على كتفه، وقالت: اعقل، وتذكر من نحن، ولا تنسَ ما أخبرتكَ به عن وضاعة البشر؛ فهم يستضعفون، ثم ينقضون.
اقتربت منه، ونظرت لعينيه مهددة، وقالت: إن أردت إنهاء حياتك فأخبرني و أنا أساعدك، ليس هناك خيار بين حياتك وحياة البشرية، إنما عليك الاختيار بين أن تعيش أو تموت، تذكر جيدًا، إنك إن لم تختار سأختار لك أنا.
فركت أصابعها، فوجد نفسه بالقلعة، وعلى الرغم من انتهاء التعويذة التى جمدته إلا أنه لم يستطع الحركة؛ فما حدث شل تفكيره، لم يتخيل يومًا أن تعامله ميري بهذه الطريقة، حتى أنه خشي عليها أن يوصله غضبه منها إلى

التفكير في قتلها، ولكن لا يمكنه الاستغناء عن ميري؛ فهي كل عائلته، ولا يمكن أن يقتل نوال، ولا أن يترك ميري تقتلها.

نظر للساعة متمنيًا أن تفرغ من حباتها؛ لتنتهي حياته ومعها أفكاره ومشاكله.

اتجه إلى حجرته، واستلقى في تابوته، كان الظلام دامسًا، تمنى أن يختفي فيه حتى عن نفسه؛ لقد فقد في تلك اللحظة الطريق للعودة؛ فنوال تراه مجرمًا قاتلًا، وميري تهدده بالقتل إن لم يقتل.

إنه لم يفكر يومًا في جرم ما يفعله -إن كان جرمًا من الأصل- إلا الآن، لماذا يحاسب على شيء مجبر عليه؛ فلا يوجد له حياة سواها؟.

عاد لنفسه، وقال:

لماذا أؤنب نفسي هكذا؟ أليس البشر أقسى مني على المخلوقات الأخرى، وعلى أنفسهم؟ ولكن أليس هذا ما كرهته فيهم ؟فلما أتمسك بحقي في العنف، وأسلب حق الحياة من غيري؟

فكر في نوال، وأنها من الأفضل أن تبتعد عنه، ولكن ميري لن تتركها، أحس بثقل الحمل وبالمسئولية تجاه نوال؛ فقد وضعها في هذا المأذق دون ذنب، كما أنه الوحيد القادر على حمايتها من شر ميري التى لم يتخيل يومًا أن يحذر منها.

خرجت نوال من الحمام ترتجف من شدة البرد، بدّلت ملابسها وارتدت كل ما كان لديها من ملابس علّها تحظى ببعض الدفئ، ولكن إحساسها بالبرد كان كأنه نابع من داخلها.

وضعت المناشف، ومفارش السرير كلها فوق بعضها؛ لتصنع منها غطاء لها، حاولت أن تنام ولكنها لم تستطع، فارتجافها كان يتزايد.

أخذت تبحث عنه بعينيها ولم تجده، اندهشت لاختفائه كل هذا الوقت، شعرت بصداع رهيب. كانت تحسّ أن رأسها ستسقط مع أقل حركة.

وضعَت يدها فوق صدرها علّها تسند قلبها فلا ينخلع من شدة الدقات.

كانت تعرف أنها أعراض برد، ولكنها بالرغم من ذلك كانت تحسّ أنها النهاية.
لم يدرِ كم من الوقت مرّ عليه قبل أن يسمع طرقات على باب غرفته، قام بلهفة؛ فمَن الطارق سواها، فتح لها الباب، ولم ينتبه أن يغلقه من شدة فرحته بمجيئها إليه بعد كل ما حدث.
نظرت بطرف عينيها داخل الحجرة، فبالرغم من تعبها الشديد إلى أنها كانت شديدة الفضول لتعرف ما بداخلها.
دهشت لمنظر التابوت داخل الحجرة، أفزعها منظره على الرغم من أنه فارغ، وتراجعت للخلف بعينين ذاغتين، نظر لها وللحجرة، وقال:

- إنك لا تفهمين، الأمر ليس كما يبدو.
- قالت بصوت ضعيف من المرض: أهذا لي؟
- لا، بل هو لي.

زاد اتساع عينيها ونظرت له ولم تتكلم، كان وجهها شديد الاحمرار بسبب ارتفاع درجة حرارتها.
قال بلهفة: تبدين مريضة، يجب أن أرسلكِ للمستشفى.
وضع يده على خصرها ليسندها، فمالت عليه وأسندت رأسها على كتفه باستسلام تام، أسعده للحظة، ثم زاد خوفه عليها؛ فقد بدَت شديدة الضعف.
تمسك بها جيدًا، وطار إلى أقرب مستشفى، كانت بين النوم واليقظة، ولم تستطع أن تتبين ما يحدث.
وصلا للمستشفى، كانت لهفته عليها سببًا في اهتمام الممرضات والأطباء، فأدخلوها ثم أعطوه استمارة ليملأها. وقف أمامها عاجزًا عن كتابة أي شيء، فهو لا يعرف عنها سوى اسمها فقط... نوال، أما هو فلا يعرف حتى اسمه.
فهو حين سأل ميري وهو صغير عن اسمه، قالت:

إن والدك لم يعطيك اسمًا، وهذا أفضل؛ فأنت أروع من أن يعرفك اسم؛ فأنت القوة والذكاء والجمال والخلود، أي اسم يصلح ليعبر عنك.

ثم رفعت عيناه إليها، وقالت بلهجة حانية:

إنك بلا اسم؛ لأنك لا تحتاج أن يعرفك أحدًا غيري، و أنا أعرفك بقلبي؛ فما أهمية الأسماء.

اعتذر للممرضة متحججًا بأن أعصابه مضطربة، و أنه سيملأ الاستمارة حين يطمئن على نوال.

و افقت الممرضة على طلبه؛ فقد بدا ساحرًا حتى أنها لم تملك أن ترد له قول، فحتى لو أخبرها بأنه لن يملأ أي استمارات لو افقت دون تردد.

كان لصدق حزنه وخوفه على نوال فعل السحر على كل من في المستشفى، فقد انتشر الحديث عن الحبيب الساحر الذى جاء حاملًا حبيبته المريضة.

قالت إحدى الممرضات لزميلتها:

يبدو لى مشهورًا، ربما كان ممثلًا أو مغنيًا، وربما كان لاعب كرة، فهو يبدو رياضيًا، ولكنني لا أتذكر أين رأيته.

قالت زميلتها: معكِ حق؛ يبدو ساحرًا، ولكن حبيبته لا تبدو بتلك الروعة.

قالت الأخرى: إنها مريضة، من المؤكد أنها فاتنة، ولكن المرض غيّر حالها، وجعلها هزيلة هكذا. ألا ترين لهفته عليها؟

ردت زميلتها: إنه الحظ.

ضحكتا وذهبتا لأعمالهما.

سمع حديثهما على الرغم من بعد المسافة، ابتسم في ألم؛ لظنهما أنه ونوال عاشقان، فهو لم يفكر يومًا بأنه يوجد في هذا العالم من يستحق أن يلاحظه، فما بال أن يحبه.

تذكر أن ميري جعلته يعيش بعيدًا وحيدًا ظنًا منه أنه لا يوجد في الدنيا ما

يستحق أن يعاش، ولكن البشر بالرغم من كل مساوئهم يعيشون بهوس الحب، البحث عنه، وتوهمه إن لم يجدوه، والتضحية بكل شيء لأجله؛ فكل الكتب والأغاني والفنون عامة في كل الدنيا باختلاف شعوبها تقوم على وصف الحب.. رحلة البحث عنه والعثور عليه، وفقده.

تُرى أكان الهدف من تلك النبوءة هو بدء رحلته في الحياة؟ رحلة البحث عن الحب، والساعة تحسب الآن أوقاته بعد أن عثر عليه، ولكن لو كان لزامًا عليه فقده؛ فليكن هو الراحل لا هي.

الفصل السادس عشر

طمئنه الطبيب بأن الحالة بسيطة، ولكنها ستظل بالمستشفى للغد حتى تستقر حالتها.

كانت الساعة تأخذ جُلّ تفكيره، وظهر القلق على ملامحه؛ فاقترب منه الطبيب وربت على كتفه، وقال مواسيًا: إنها تستطيع الكلام الآن، يمكنك أن تراها.

قال بضطراب: لا، سأراها غدًا.

وتركه وذهب مسرعًا، قد زاد تصرفه هذا تحدث الناس عنه، وعن حكايتهما في المستشفى.

قال الطبيب: إنكِ صرتِ أحسن الآن، ولكن يجب أن تهتمي بصحتك، والتغذية الجيدة.

قالت نوال: هل يمكنني استقبال زائرين الآن؟

قال الطبيب بارتباك، فلم يشأ أن يخبرها بهروب حبيبها بتلك الطريقة الغريبة: نعم، ولكن صديقك ذهب لقضاء بعض الأمور.

ظهر الحزن على ملامحها؛ فقالت الممرضة لتواسيها:

إنه سيعود، لا تقلقي؛ فأنتِ لم تشاهدي مدى لهفته عليك عندما أحضرك، لقد أربك المستشفى كلها حتى ظننّا أن الأمر خطير، ولكنه بدا على موعد هام، ولم يغادر المستشفى إلا بعد أن اطمئن عليك.

أبتسمت نوال؛ فأكملت الممرضة: إنه يحبك كثيرًا، ثقي في ذلك.

ابتسم الطبيب لهما وودعهما، وغادر الحجرة.

نظرت نوال للنافذة المفتوحة، وأشعة الشمس التى تملأ المكان وتنهدت، وقالت: ليته و افق أن نذهب للشاطئ؛ لنستمتع بأشعة الشمس، ومنظر البحر.

قالت الممرضة: إنها فكرة رائعة، فهو على الرغم من جماله بدا شاحبًا قليلًا، لقد ظننناه شاحبًا من شدة خوفه عليك.

أكملت الممرضة حديثها، وهي تجلس بجانبها على الفراش ليكون الحديث أكثر حميمية: ولكنه شديد البياض، وقد علمتُ أن تلك الدرجة لا تكتسب لونًا برونزيًا، ولكنها تحمر من الشمس، ثم تعود للونها ثانية.

قالت نوال ببساطة: نعم، فإنه سيكون فاتنًا لو اكتسب بعض اللون، ولكننا لم نجرب فهو عنيد، فلم يو افق.

قالت الممرضة: لمَ؟

قالت نوال: لأنه لا يحب الخروج إلا بالليل، فقد اعتاد على ذلك.

قالت الممرضة بلهجة الناصح العالم: إنها عادات العزاب، ولكنه الآن مرتبط، فلتصرّين على أن يغير تلك العادات، إنه يحبك حقًا، ولكن أصدقاء السوء قد يعيدونه لحياة اللهو ثانية؛ فلتقطعي عليهم الطريق.

قالت نوال بلهفة: كيف؟

قالت الممرضة: أضيفي لمساتك على كل نواحي حياته.

قالت نوال: لقد فعلت، ونظمت له حياته، ولكنه صاحب ماضي، و أنا...

قالت الممرضة: ليس هناك معنى لخوفك من ماضيه، فهو ملكك الآن، وهذا كل ما يهمك، انسي كل شيء وتذكري إحساسك به فقط، ولا تعكري صفو حبكما بالماضي؛ فالماضي قد مضى ولا يعنينا في شيء.

إنني أحاول.

أنتِ قطعتِ أغلب الطريق، فلم يتبقّ لكِ إلا شيئًا واحدًا.

قالت نوال بلهفة: ما هو؟

قالت الممرضة، وهي تبتسم:

أن تحوليه من كائن ليلي إلى كائن نهاري؛ لتعيشا معًا في النور.

قالت نوال: معكِ حق.

سرحت قليلًا، ثم قالت للممرضة:

هل أبدو جميلة؟ أقصد هل تصلح مثلي لتكون حبيبة شخص مثله؟

قالت الممرضة بحنان: إن الحب لا يمشي وفق المعايير؛ فهو يحبك بالفعل، فلا تشغلي بالك بشيء آخر.

قالت نوال في شك: أترينه يحبني حقًا؟

قالت الممرضة: بصورة لم أشاهدها من قبل في حياتى كلها، إنه يحبك مثل الرو ايات والأفلام.

ضحكت نوال، فأكملت الممرضة ضاحكة: لقد هالتنا لهفته عليك حتى ظننّاك تحتضرين، و أننا نشاهد نهاية قصة حب أسطورية.

قالت نوال، وقد بدت مضطربة: أيجب أن يموت إحدانا حتى تصير قصة حبنا أسطورية؟

قالت الممرضة، وقد شعرت بألمها: وما حاجتنا لقصة حب أسطورية، فلنكتفي بقصة الحب وكفى.

ابتسمت نوال، وقالت: معكِ حق، إنكِ لطيفة جدًا يا سيرينا.

قالتها وهي تدقق في الشارة التى يضع عليها أسماء العاملين المعلقة على صدرها.

قالت سرينا: سأذهب، وسوف أمرّ عليك ثانية.

قالت نوال، وهي تشيعها بابتسامة: لا تتأخرى؛ فسوف أنتظرك.

استرخت نوال في هدوء ووداعة؛ فقد أبعدت كل ما حدث من ذهنها، ولم تحتفظ في ذاكرتها إلا به.

الفصل السابع عشر

نامت نوال نومًا عميقًا تحت تأثير الأدوية، فتحت عينياها وأدارتهما في الحجرة، فلم تجده، وجدت سرينا تغير لها أكياس المحاليل، ابتسمت لها نوال، ورفعت لها سرينا السرير حتى تعتدل نوال في جلستها دون عناء.

قالت نوال: ألم يأتي؟

قالت سرينا: ليس بعد.

قالت نوال، وقد بدا عليها الامتعاض: هل يمكنني الاستحمام هنا؟ فأنا أشعر بالانزعاج من رائحة الأدوية والعرق، ولا أريد أن أقابله و أنا هكذا.

قالت سرينا: نعم؛ يمكنني أن أعد لكِ الحمام، ولكن لا يوجد لديك ملابس أخرى هنا، صحيح؟.

قالت نوال في يأس: نعم... حسنًا، سأنتظره إذًا.

قالت سرينا :يمكنني أن أعيركِ بعض الثياب إلى أن أنظّف ملابسك، و أنتِ ترتدين أكثر مما سأعطيك على أي حال؛ فلستِ الخاسرة.

قالت نوال بسعادة: حسنًا؛ فلنسرع قبل أن يأتي.

خرجت نوال من الحمام ترتدي ثوبًا أصفر زاهيًا أكثر مما اعتادت أن تلبس، ولكنها أحبته، قالت لسرينا:

إنه أجمل من أن يُلبس في المستشفى.

قالت سرينا: ربما يسمح لكِ الطبيب بالخروج اليوم.

أيناسبني هذا الثوب؛ فأنا لا أرتدى فساتين في العادة؟

إنه رائع عليكِ، كما أن بشرتك اكتسبت بعض الاحمرار، وبدوتِ أجمل مما سبق.

إنك لطيفة جدًا يا سرينا.

و أنتِ أيضًا، لقد أحببتكِ سريعًا؛ فأنت وحبيبك تبدوان كطفلان تائهان مما يبعث على الشفقة بكما، ويجعل كل من يراكما يعاملكما بحنان.

أكملت وهي تمكسك ورقة وقلم، وتكتب قبل أن تغادر الغرفة:

سوف أكتب لكِ عنواني ورقم هاتفي الخاص؛ حتى لا يكون لديك حجة في عدم السؤال عني.

ابتسمت لها نوال وأخذت منها الورقة، وتأملتها كثيرا؛ فلم يكن لها يومًا صديقة بمثل تلك الرقة، بل لم يكن لها يومًا صديقة من قبل؛ فقد جعلتها الحادثة التى مات فيها والديها تفقد الثقة في كل الناس، حتى قابلته وتغير كل شيء؛ فهو بالرغم من غلظته في بعض الأحيان إلا أنه يكون دائمًا حاضرًا حين تحتاجه؛ فقد أنقذها ممن أراد قتلها في شقتها، ومن الذئب، ومن المرض، ومن وحدتها.

إنه لم يرَها أبدًا كالدكتورة نوال، كما يفعل الجميع، وأحيانا يرونها الدكتورة فقط، إنها لم تتخيل يومًا أن يكون لها حياة بعيدًا عن معملها إلا حين عاشت معه، ربما كانت تحتاج لأن تُخطف؛ لتجدَ نفسها.

جلست تنظر للسماء من خلال نافذتها، كانت تنتظر الغروب، وتنتظره؛ فقد كان لديها يقين أنه سيأتي في المساء دون أن تعرف لذلك سببًا.

تلاعبَت بها الظنون لطول انتظارها، وأخذت تفكر؛ أتراه كان مع ميري كل تلك المدة؟ أتراه سيقتلها لو طلبت منه ميري ذلك؟

وضعَت يدها على صدرها، وظهرت دموع في عينيها، وتمنت لو أنها ما رأته؛ لكانت فارغة البال عن مثل تلك التساؤلات التي لا تملك لها إجابة.

ولكنها عادت تتسأل في يأس؛ أتراه يترك ميري لأجلها؛ فميري جميلة، ولكنها قاسية، ولكنه كذلك، أو بمعنى أدق يبدو كذلك، فهو لم يبدو قاسيًا وهو يسندها إليه بالأمس، صحيح أنها لم تسمع اضطراب دقات قلبه، ولكن لمسَته لها كانت رقيقة جدًا، وكأنه يخشى عليها من الخدش.

لا ليس قاسيًا مثل ميري، إن نظرة ميري تقتل بلا سكين، إنها حية تبث السم في حياته، فأيًا كانت علاقتها به يجب أن تنهي ويتخلص منها، وهى ستساعده في ذلك؛ فهو لن يكون لها طالما ميري موجودة في حياته.

غابت الشمس منذ دقائق، سمعت طرقات بأطراف الأصابع على الباب.

قالت نوال بسعادة بالغة؛ فقد حضر أخيرًا:

ادخل.

دخل حاملًا باقة ورود حمراء، وعلى وجهه ابتسامة حانية، أعطاها الورود وقبّل رأسها في تردد، ثم جلس على الكرسي الموضوع بجانب الفراش، ظل ناظرًا لها دون أن يتكلم، كان يخشى أن يفسد عليه الكلام صفاء اللحظة بينها كالسابق، لاحظت ذلك، فقالت:

شكرًا لكَ لإحضارى إلى هنا، لقد ظننتُ أنني سأموت.

لا تذكري الموت ثانية، ما دمتُ بجانبكِ لا تخشي شيئًا.

حسنًا، لقد أخبروني أنكَ كنت خائفًا عليّ، فوددتُ أن أشكرك، ولكني لم أجدك حين استيقظتُ، وظللتُ أنتظرك طوال النهار.

قال في ارتباك:

أنت تعرفين أني لديّ مشاغل كثيرة، ولم أستطع الحضور قبل الآن.

صمت في ألم لكذبه عليها؛ فلم يعتد على الكذب من قبل، ولا يريد أن يكذب عليها، ولكنه لا يعرف كيف يجعلها تصدّق الحقيقة عندما يخبرها بها؛ فقد حاول سابقًا ولم يحظى منها إلا بالسخرية منه، ومما قال.

قالت نوال، وقد لاحظَت شروده:

دعكَ من هذا، إنني سوف أغادر المستشفى حين يأتي الطبيب بعد قليل.

قال، وقد تذكر مسألة الاستمارة التى عليه أن يملأها: - ولكني أرى أنه من الأفضل لنا أن نغادر الآن مادامت حالتك تحسنت على كل حال.

قالت بصبر نافد:

- إنك تتصرف بطريقة غريبة، صارحني؛ ما الذي تختبئ منه؟ أتخاف الشرطة؟ لا تخف، لا أظن أن هناك من فكر في الإبلاغ عن غيابي.
- إن علينا أن نملأ بيانات قبل أن نغادر، و أنا...
- فهمت.
- أيمكننا الذهاب الآن، وأعدك أن أوضح لك كل شيء.
- كل شيء؟

أومأ برأسه مو افقًا.

فقالت: حسنًا، هيا بنا، ولكنك سترد على كل أسئلتي.

- ولكن عليكِ أن تصدقيني.
- سأفعل.

خرجا من المستشفى وهما يتخفيان من سرينا والطبيب، كانت حجرة الاستقبال مزدحمة مما سهل عليهما مهمتهما. مشيا قليلًا في الغابة، لاحظ أنها ترتدي فستانًا لم يرَه من قبل، فسألها:

- من أين أتيتِ بهذا الثوب؟
- قالت، وهي تلف به في سرور: أأعجبك؟ لقد أعطته لي سرينا.
- مَن سرينا تلك؟
- إنها الممرضة التي اعتنت بي، إنها لطيفة جدًا، لقد أعطتني رقم هاتفها وعنوانها؛ لأتواصل معها.
- يبدو أنها أثّرت كثيرًا عليكِ، فتبدين أكثر تفتحًا.

- ربما كنت أحتاج لشخصٍ لطيف في حياتي.
- وسرينا هي ذلك الشخص.
- ربما أحتاج لأكثر من شخص.
- ألا زلتِ تريدين معرفة الحقيقة؟
- نعم.
- امنحيني ثقتكِ إذًا؟
- قالت وهي تبتسم: حسنًا، لك ما تريد.

وضع يدها حول رقبته، وقال وهو يحوط خصرها بيده:
تمسكي بي جيدًا.
ابتسمت، وهمت أن ترد ساخرة من تصرفه، ولكنها سرعان ما شعرت بقدميها ترتفعان عن الأرض، وأنها تعلو في الهواء، أحكمت يدها حول عنقه بشدة، وأخفَت وجهها في صدره، وسارت في جسدها ارتجافة فزع.

الفصل الثامن عشر

"لا تخافي؛ فهذه أول خطوة لتعرفي الحقيقة ."
قالها وهو يبتسم، كان الهواء باردًا، ولكنه لطيف؛ فقد كان يطير ببطء حتى لا يزعجها، وحاول أن لا يرتفع كثيرًا حتى تستمتع بتجربة الطيران.
قالت نوال: من أنت؟ أترتدي ثيابًا من نوع خاص تمكنك من الطيران؟ أم تراك شربتَ شيئًا ما؟ ماذا فعلت لتطير؟
لا شيء.
همت أن تتكلم، فقال: لا تتكلمي، حاولي الاستمتاع بالهواء، فالصيف جاء، والجو أصبح جميلًا، ألا زلتِ لا تريدين الذهاب للشاطئ؟
قالت ببراءة، فقد أصبحت تخشى الخروج ليلًا بعد حادث الذئب، كما أنها لا زالت مرتبكة من طير انه بها: فلنذهب غدًا لنستمتع بشمس الصيف.
قال: إنكِ عنيدة.
و أنت غريب، ألن تخبرنى كيف تطير؟ هل أنت ساحر؟
لا، ميري ساحرة، أما أنا فـ...
تردد؛ فلم تنطلق الكلمة من فمه، فهو يعرف أنه إذا قالها سينتهي كل شيء، ولن يكون أمامه سبيل للتراجع.
قالت: أنت ماذا؟
لدىّ قدرات خاصة كالطيران، والقوة، وعدم الأكل، والشرب، والأبدية، والشباب الدائم، ولا أدرى ماذا أيضًا؟
قالت بذهول: أتقول الصدق؟ إنك معجزة، يجب أن تخرج للعالم؛ ليستفيد العلم من حالتك.
قال بألم: لا، لقد سبق وخرجنا للعالم فقُتلنا.

لا تخشى شيئًا، سأتولى الأبحاث بنفسي.
ألمه أن تعده مسخًا يستحق الدراسة والتشريح، إنه يعلم أن البشر أغبياء، ولكنه لم يكن ينتظر ذلك منها، ظهر الألم على وجهه.
قالت لتصلح ما فعلته بتهورها:أظن أن قلبك لا يعمل، فلا أسمع له صوت.
قال ببرود فقد ظنها بدأت دراستها له: نعم.
قالت بأسف: لا تغضب مني؛ فقد عشت عمري كله للعلم؛ فصعب عليّ أن أنسى ذلك بسهولة.

- و أنا أيضًا عشت طوال عمري، وهو أطول مما تتخيلين أحتقر البشر و أبغضهم، ولكن كل ذلك تغير بعد أن قابلتك.
- حقًا؟
- ابتسم، فاحمر وجهها، قالت لتخرج الشك من قلبها: لمَ؟
- لمَ ماذا؟
- لمَ تغير موقفك من البشر؟
- لأني... لا أدري، أشعر أنكِ...
- سكت فضحكت، وقالت:
- أتدري أن مظهرك لا ينم على هذا الخجل في معاملة النساء.
- قال بحدة مازحة:
- أنا لست خجولًا، ولكن الوضع معقد، دعيني أخبرك الحكاية كلها، ثم ستعرفين لوحدك لمَ غيرتِ حياتي؟ وكيف؟
- حسنًا احكِي لي؛ فيبدو أن الطريق طويل.
- لكن صدقيني؛ فأنا لا أكذب، وخاصة عليك.

- سأفعل.

قصّ عليها ما حدث منذ توقف الساعة إلى الآن، وأمر النبوءة وطبيعة علاقته بميري، ولكنه لم يذكر شيئًا عن طبيعته كمصاص دماء، وصارحها بكل شيء عدا ذلك. لم تفهم ما يقصده تمامًا، ولكنها لم تبدي أي علامات تكذيب له؛ فقد وعدته، وكانت ترى إصراره على صدق حديثه، كما أنها رأته يطير بنفسها.
قالت:

- معنى كلامك أن علاقتك بميري علاقة تبني؛ فأنت بمثابة الابن لها.

فطبيعة علاقته بميري هى جُل ما يهمها في كلامه؛ فهذا يعني أنها لا تنازعها فيه، و أنه لها وحدها.
قال: هذا صحيح، ولكن ذلك كان قبل أن أرفض قتلك، إنها لن تتركنا نعيش في سلام، ويجب أن أجد حلًا لنبعدها عنا.
سنفكر معًا لنجد حلًا، ولكن هل الصورة التي وجدناها تحت الوسادة لوالديك؟ إنها قديمة جدا.
نعم، ألا زلتِ تحتفظين بها؟
نعم، إنها معي. وأخرجَتها من دفترها.
أمسك بها برفق وتأملها، كانا يبدوان سعيدان، إنهما يشبهانه هو ونوال كثيرًا، تمنى أن يكونا معًا مثلهما، ولكن كيف؟
قال لنوال في تردد: ها.. ماذا ترين بعد أن أخبرتك كل الحكاية؟
قالت: صراحة لا زلت لا أستوعب الأمر؛ فما تحكيه غير منطقي، أنا أرغب في تصديقك، لكن عقلي يأبى التصديق، اعذرني.
قال في انفعال: ولكني طرتُ بك؛ فأي بشري يفعل ذلك.

إن عروض السحرة بها مثل تلك الأشياء، وإن كنت أشهد لك بالتفوق على كل العروض، ولكن ذلك لا يعني أني لم أصدق كل ما قلته.

فما الذي تصدقينه من كلامي إذًا؟

أصدق أن ميري تريد قتلي؛ فقد رأيت ذلك في عينيها، وكذلك أصدق أنك لا تريد قتلي؛ فقد رأيت ذلك في عينيك أيضًا.

حسنًا، هذا يكفيني الآن.

الفصل التاسع عشر

كانت ميري مشغولة بتركيباتها السحرية؛ فلم تلحظ دخوله، وهو يتأملها، بدت كبيرة الشبه بنوال حين كان ير اقبها، وهي تعمل في معملها؛ فلم يجد ذلك التميز الذى تدعيه ميري، فكلتاهما تقومان بعمل التركيبات والتجارب، وكلتاهما تبدو سعيدة بما تفعله.

أخذ أحد الكتب المكومة في كل مكان وأخفاه خلف ظهره، وفرد عليه طرف معطفه؛ ليخفيه.

انتبهت له ميري، فقالت بارتياب: منذ متى و أنتَ هنا؟

قال مازحًا ليطمئنها: منذ كان هذا السائل أحمر.

وأشار لسائل بنفسجي اللون في زجاجة تحملها.

ابتسمت، وقالت: منذ كنتَ صغيرًا، و أنت تحب ملاحظتي من بعيد و أنا أعمل، ولكنك لم تقترب مني يومًا للدرجة التي تجعل منك ساحرًا.

قال بحسرة صادقة، فلو كان ساحرًا لعرف كيف يوقفها: ليتني فعلتُ.

قالت وقد ظنته حزينًا بشأن ساعته: إن كونك مصاص دماء ليس بالشيء السيء؛ لتحزن هكذا.

وضعت الزجاجة فوق أحد الرفوف بحرص شديد، وقالت: هل قتلتَ البشرية؟

لا، ولكني سأفعل، إنني أجوّع نفسي حتى أستطيع القضاء عليها دون تردد.

لم أكن أدري أن قتل البشريين يحتاج منك كل ذلك التخطيط.

إنه خطؤك، لمَ لم تتركيني أقتلها من البداية؟ لكان الوضع أفضل الآن.

لا داعي للقلق؛ إن الأمور ستتحسن، ونعود كما كنا بمجرد موت تلك البشرية، تذكر يا حبيبى تلك السنوات الر ائعة، والهدوء، والرخاء، وراحة البال.

قال بحزن: نعم أتذكرها.

حين ينتهي الأمر يمكننا أن نحتفل.

كيف؟

لا أدري، ولكن ربما نذهب إلى الشاطئ؛ فأنا أتذكر أنك كنت تطلب مني دائمًا و أنت صغير أن نذهب للشاطئ، ولكنني كنت دائمًا مشغولة.

نظر لها طويلًا، لاحظت ذلك؛ فقالت: ما بك؟

إنني لا أتذكر شيئًا و أنا صغير، حتى أني لا أتذكر أنني كنت صغيرًا؛ لذا فكلما ذكرتِ أحداثًا تلك الفترة أندهش؛ لأني لا أعتقد أني عشتها فعلًا.

قالت بارتباك: إنك أكثرتَ في الكلام حتى صرتَ لا أفهمك، لكن دعك من ذلك، وقل لي: متى تقتل البشرية؟

قال بثبات: قريبًا... حين أجد الوقت المناسب، لا تتعجلي الأمور؛ فلطالما نصحتيني بالصبر.

ودّع ميري وهي تبتسم زهوًا بانتصارها، فقد عاد إليها، إنه كان يلهو بتلك البشرية؛ فقد أحسنَت تربيته، فهو ليس غبيًا كأبيه.

عاد للقلعة، دخل حجرتهما، وجد نوال تكتب صيغ غريبة في دفترها، فقال:

ألا تنتهي تلك الرموز؟

قالت نوال: إنها أفكار، ولا توجد نهاية للأفكار.

قال وهو يخرج الكتاب من خلف ظهره حيث أخفاه من ميري، وأعطاه لنوال:

هذا إثبات آخر على صدق كلامي، اقرأيه، ولكن بعينيك، لا تستخفي بالوارد فيه؛ لأنه حقيقي وسحري، ويمكن أن يدمرنا.

قالت نوال، وهي تقلبه بين يديها بانبهار: إنه قديم جدًا... إنها مخطوطة نادرة... إنها ثروة لا تُقدر بثمن.

دعكِ من هذا؛ فأنا لديّ من الأشياء القديمة ما يملأ متحفًا؛ فليس هذا موضوعنا الآن.

حسنًا لا تتعصب هكذا، لقد كنت أفكر بصوتٍ عالٍ.
وهذه هي المشكلة، لا تفعلى ذلك و أنت تتصفحي هذا الكتاب.
قال، وهو يمسك يدها قبل أن تفتح الكتاب:
عديني.
قالت وهي تبتسم:
أعدك، دعنى أعمل وأحضر لي دفاترًا جديدة، و أقلامًا؛ فهو كتاب يستحق الدراسة.

- حسنًا سأحضرها لكِ حالًا، لا تبدأي شيئًا إلا و أنا معكِ؛ حرصًا على حياتك.
- خذه معكَ إذًا؛ فإن فضولي لن يجعلني أنتظر.
- حسنًا، هذا أفضل علينا؛ أن نتصارح بكل شيء.
- أخذه وطار، وأحضر دفاتروالأقلام وأعطاها لنوال، وقال:
- حسنًا، حاولي أن تبسّطي لي الأمر دون أن تستخدمي صيغ التعاويذ.
- سأحاول.

جلسا يتدارسان الكتاب، كان من حسن حظهما أن الكتاب به الكثير من التركيبات؛ فكان سهل على نوال أن تدرس كيفية حدوثها، وتدوّن تأثيرها، وسجلت الملاحظات الدقيقة. شعر بتعبها؛ فقام، اعتقدت أنه ملّ من الكتاب ومن كلامها، ولكنه عاد بعد قليل حاملًا كوب من اللبن وطبق فاكهة، ابتسم وهو يضعهما أمامها، وقال: مثل الأيام القديمة.
تذكرت نفسها، وهي وحيدة بين المعمل والبيت والجامعة؛ فشعرت أنها لا تريد العودة ثانية لتلك الأيام.
قالت: ولكن الآن أفضل.

أسعدته كلماتها البريئة، وأحس برغبة في أن يخبرها بكل الحقيقة، ولكن سيطر عليه الخوف من أن يفقدها؛ فابتسم لها ولم يتكلم.

قالت وهي تقرب له قطعة تفاح:

آه، نسيتُ أنك لا تأكل، أهي لعنة أم نعمة تلك؟

لا أدري، ربما كانت الاثنين؛ فمن حيث أن الطعام متعة فهي نقمة، ومن حيث أنه حاجة فهي نعمة.

ثم لمس قطعة التفاح من يدها، وقربها من فمها، وقال:

ولكن كل شيء تفعلينه يكون له سحره عندي.

قالت، وهي تأكل التفاح ببطئ شديد؛ لتحتفظ بتلك اللحظة أطول قدر ممكن:

مثل ماذا؟

كالكلام مثلًا.

ضحكت، فأكمل:

إنني لم أتكلم في عمري الذي هو أكثر من مائة عام قدر ما تكلمته في تلك الأيام القليلة التى أمضيتها معك.

قالت مازحة:

تبدو لي أصغر من ذلك كثيرًا.

إنني لا أشعر بتلك السنين الطويلة؛ فقد كنت فارغًا بلا ذكرى ولا ذاكرة.

ابتسم، وقال:

أتدرين أن معكِ حق، الآن أفضل.

الفصل العشرون

غلب نوال التعب؛ فنامت على كتفه، أسند رأسه على رأسها في حنان في بادئ الأمر، ثم أحسّ أن لها رائحة جميلة مميزة، قرب وجهه من شعرها؛ ليتبين مصدر الرائحة، كان لشعرها رائحة جميلة ربيعية، ولكنها رائحة غسول، أما الرائحة التي تجذبه ليس لها مثيل، اقترب من وجهها، تململت قليلًا وبتسمت؛ ظنته يداعبها لتصحو، ولكنه اقترب من رقبتها، وشعر بانجذاب شديد لها، غلبته طبيعته؛ ففتح فمه، وكاد أن يغرس أسنانه بعنقها، ولكنها قامت مرتبكة من جراءَته. دخلت الحمام، وكانت تضع فيه حقيبة ملابسها حتى لا تضطر لتبديل ملابسها بالخارج؛ فهو لا يستأذن عندما يدخل الحجرة، نظرت لنفسها في المرآة، وقالت: إنه فستان سرينا السبب؛ فهو جريء جدًا، ما كان ينبغي لي أن أرتديه.

ألقت نظرة أخرى على نفسها، نظرت لعنقها والجزء المكشوف من صدرها وذراعيها، وقالت، وهي تبتسم بخبث:

ولكنه يشعرني أني جميلة لأول مرة؛ لذا لن أعيده لها، سوف أشتري لها ثوبًا آخر.

أخرجت بنطالون، وبلوزة عالية الكولة، كانت تريد أن تخفي إحساسها بنفسها الذي ظهر فجأة، ولكنه في الزمان والمكان الخطأ.

خرجت فلم تجده، فكرت أنه قد أصابه ارتباك؛ جراء التجاذب الغريب الذى حدث بينهما مثلها، وسوف يعود أكثر هدوءً.

سار في طريق الغابة المحفوف بالأشجار، كانت أشعة الشمس لا تكاد تصل إلى الأرض؛ فهي ضعيفة جدًا؛ لاقتراب الغروب، ولكنه كان يعدها مغامرة ما كان يجرؤ على التفكير فيها، لكن انفعاله كان أكبر من تفكيره.

جلس تحت ظل شجرة؛ ليحتمي بها، كان يعرف أنه يجازف بحياته ببقائه في الخارج في هذا الوقت، ولكن كان أهون عليه أن تحرقه الشمس من أن يقتل نوال؛ فهو لا يصدق أنه كاد أن يقتلها في لحظة ضعف، وبكل بساطة، وبدون مقاومة تُذكر من جانبه.

كره نفسه، وملأه شعور بالعار مما كان يعده تميزًا فيه؛ فما كان يدري كم هو عبدٌ لشهوة الدم حتى أنه ليقتل حبيبته بتلك البساطة.

أحرق رجله شعاع شمس تسلل من بين أغصان الشجرة. كان ضعيف، ولكنه أفزعه؛ فأنكمش، والتصق بالشجرة، فلم يجرؤ على التحرك إلا بعد أن يتأكد من غروب الشمس.

غابت الشمس، ولم يتحرك من مكانه، فلم يعد لديه رغبة في القيام بأي شيء، كان كل ما يفكر فيه هو كيف يتخلص من عبء كونه هو؟

شعر بمرارة وهو يفكر أنه ليس عليه حماية نوال من ميري فقط، وإنما يجب عليه أن يحميها من نفسه أيضًا.

فكر قليلًا محاولًا أن يجد مبررًا لما حدث، فرجح أن يكون سبب ذلك عدم خروجه للاقتناص ليومين، فصار ضعيفًا تجاه رائحة الدماء البشرية؛ لذا عليه أن يجد من يتغذّى على دمائه حتى لا يضعف ثانية أمام نوال، وإن كانت رائحتها شهية.

طار صوب المدينة؛ علّه يجد فيها ضحية يتغذى عليها.

سار في شوارع المدينة يتلفت؛ ليجد شخصًا وحيدًا يمكن أن يكون ضحية سهلة، سمع صوت ينادي عليه ليستوقفه، التفت إلى مصدر الصوت، كانت شابة تجلس بمفردها في سيارة قديمة الطراز، ابتسم لها؛ فقد وجد طعامه أخيرًا.

اقترب من السيارة، فتحت له الباب الأمامى؛ ليجلس بجانبها، دخل السيارة وجلس، ثم مال ناحيتها بجسمه استعدادًا؛ لينقضّ عليها.

قالت، وهي تبتعد عنه قليلًا:

ألا تذكرني؟

قال في نفاذ صبر، فليس لديه وقت لتلك التفاهات:

لا.

قالت وهى تبعده عنها في إصرار، وقد تبدّلت لهجتها الودودة بلهجة جافة:

إنك فهمت الأمر كله خطأ؛ فقد افترضتُ أنك تتذكرنى؛ فأنا أعمل بمحل البقالة الذي تشتري منه أغراضك باستمرار، ولكن يبدو أنك ظننتني شخصًا آخر.

قال في ارتباك، وهو يعتدل في جلسته:

أتذكر طبعًا، فأنا أشتري منك الطعام كل يوم، ولكن الظلام شديد هنا، و أنا كنت...

لم يجد حجة مقنعة، والحقيقة مفزعة؛ فسكت، لاحظت ارتباكه؛ فأشفقت عليه، ابتسمت له، وقالت:

لا عليك؛ إنه سوء تفاهم و انتهى، طريقك إلى أين لأوصِلك؟ فلا تسير وحدك في هذا الظلام.

قال، وهو يفتح باب السيارة ويغادرها:

لا عليك؛ فأنا أفضل أن أسير قليلًا.

أغلق باب السيارة و ابتسم لها، كان يريد أن يسألها عن اسمها، ولكنه خشي أن تسأله بدورها عن اسمه؛ فأمسك لسانه عن السؤال واكتفى بالتلويح لها مودعًا، وسار يلعن حظه العاثر.

اقترب من وسط المدينة، كان الزحام شديدًا، ولكنه قرر أن يخاطر ويبحث عن ضحية مناسبة هناك، وجد بعض الأشخاص حول أبواب السينمات، والمسارح، والملاهي الليلية، ولكنه وجد فتاة تقف وحيدة أمام باب المسرح في توتر، اقترب منها فابتسمت له في ود، وقالت:

هل ستحضر المسرحية مع صديقتك؟

قال في ذهول: لا.

ألا تذكرني؟

تملكه غضب، ودّ لو يلقي بنفسه من أعلى جبل، أو يصدم رأسه بالحائط، ما بال هذا السؤال يتردد كثيرًا اليوم؟

قال بنفس اللهجة الجافة: لا.

قالت بأسف، وارتباك: ألا تذكر الثوب الأحمر، والحذاء الذي اشتريتهما لصديقتك، أو لزوجتك؛ فلم تخبرني لمَن؟

قال، وقد تذكرها فظهرت ابتسامة مرحة على وجهه:

آه طبعا أذكرك؛ فأنتِ إنسانة لطيفة حقًا.

يبدو عليك الغضب اليوم، أأحدثت مشاكل بينك وبين حبيبتك؟

قال، وقد هدأت ثورة تعطشه للدماء، ولانت ملامح وجهه من الألم: نعم.

قالت كمن يحدث نفسه: لا تتركها تنتظرك كثيرًا مهما حدث بينكما، ظلْ دائمًا بجانبها.

قال برقة؛ فقد شعر بألمها: شكرًا على النصيحة، ولكن ثقي أنه سيأتي، وأن هناك سبب قهري أخّره، وإلا فهو مجنون؛ ليترك حسناء مثلك تنتظره وحيدة على باب المسرح، وهناك آلاف الرجال يتمنون منك نظرة، إنه أحمق لو تعمد ذلك.

انفرج وجهها عن ابتسامة، وقالت:

أشكرك، إنه لطف منك، لكنك لا تبدو لي أحمقًا؛ لتترك حبيبتك تنتظرك وحيدة الآن.

قال مازحًا، وهو يبتسم: هل أخبرك بسر؟

يا ليت، ما هو؟

كل الرجال حمقى.

ضحكت، وقالت، وهي تنظر لبعيد خلفه: ها قد أتى أخيرًا؛ فلننتقم منه، ونجعله يغار قليلًا.

التفت؛ فلمح الغضب على وجه صديقها المسرع الخطى نحوهما، فقال، وهو يغمز بعينه: لقد نال كفايته.

ودّعها، وسار عكس اتجاه صديقها حتى لا يحتك به؛ فقد بدا غاضبًا جدًا.

ابتسم لهذا الموقف الغريب، ولكنه ما زال بلا مصدر للغذاء؛ فليستمر في البحث، لم يبعد قليلًا حتى وجد طابورًا طويلًا أمام ملهى ليلي، أشارت له فتاة جميلة ترتدي ثوبًا جريئًا، ابتسم لها، وقال في نفسه مهنئًا:

أخيرًا وجدتها.

قالت له بعد أن خرجت من الطابور: ماذا حدث؟ لقد غادرتما المستشفى دون أن تخبرا الإدراة، ولكن لا عليك، فقد غطيت تصرفكما هذا، كيف حال نوال؟

أفاق من نشوته بالضحية على كلمة "نوال".

قال في ارتباك:

بخير، أنتِ...

وأشار إليها محاول تذكر الاسم، عرفت أنه لا يذكرها؛ فهما لم يتحدثا من قبل، ولكن كلام نوال عنه أزال الفارق بينهما فكلمته وكأنه صديق قديم.

قالت، وهي تبتسم لتخفف توتره:

سرينا... اسمي سرينا، أنا الممرضة التى تولت رعاية نوال في المستشفى.

قال بمرح، وقد اتسعت عيناه لتذكرها: صاحبة الثوب الأصفر.
ضحكت، وقالت: تمام، أنا هي، هل أعجبك؟
قال بسعادة، فقد أسعده أن يجد شخص يحدثه عن نوال:
جدًا، لا تدري كم تغيرت نوال حين ارتدته، كانت مثل طفلة مرحة ومنطلقة، لم أكن أتخيل أن للملابس كل هذا التأثير على البشر.
قالت، وهي فخورة باكتشافها الخطير:
أكيد، ترى لمَ يصممون للمهام الخاصة ملابس خاصة؟ لأن للملابس روح، وشخصية تسيطر من يلبسها.
قال بسعادة: ستُسر نوال كثيرًا حين أخبرها بلقاءنا هذا، إنها عنيدة، ولا تحب الخروج مساءً، ستندم جدًا.
قال سرينا: عندي فكرة؛ لمَ لا تحاول أن تخرج معها بالنهار؛ لرشوتها لتخرج معك بالليل؟
قال، وقد انكمشت ابتسامته: إن الأمر أصعب مما يبدو عليه، أدعكِ تستمتعين بسهرتك؛ فينبغي عليّ أن أنصرف.
سار مبتعدًا، وزاد ضعفه وتوتره، قال لنفسه:
لن أقترب من النساء، يكفيني ما نالنى منهن هذا اليوم، سأبحث عن رجل.
وجد رجلًا في الأربعينات، يبدو وقورا؛ يرتدي بذلة، ويهم أن يركب سيارته؛ فأسرع إليه لينقضّ عليه، فلم يكن هناك أحد غيرهما في الشارع، أدهشه اتساع ابتسامة الرجل المرحبة.
أبطأ خطوته، وقال لنفسه في أسف: لا، ليس ثانية.
مد يده مصافحًا، وقال: مرحبا بك يا دكتور.
قال الطبيب معاتبًا، ولكن برقة: لمَ غادرتما المستشفى بهذا الشكل؟
قال في ارتباك: كان هناك ظروف أجبرتنا على المغادرة.

قال الطبيب:

حسنًا، لقد ملأت لكما سرينا الاستمارة، ودفعتُ أنا مصاريف المستشفى، ولا توجد مشكلة.

أخرج رزمة من النقود من جيب بدلته، وقال للطبيب:

إن الأموال ليست هي المشكلة، أخبرنى بما دفعت و أنا أرده إليك شاكرًا.

قال الطبيب بحنان، وهو يربت على كتفه:

وما المشكلة إذًا؟

قال، وهو يبعد عينيه:

لا يمكنني أن أخبرك.

ترك له المال على سطح السيارة، وسار مبتعدًا عنه بخطى سريعة، لم يلتفت لنداءاته؛ فقد كان صوته الداخلي يصم أذانه. " لماذا يحدث كل هذا لي؟ ولماذا الآن؟."

الفصل الحادي والعشرون

سار بأقصى سرعة؛ ليبتعد عن المدينة حتى وصل للغابة التى تفصل بين قلعته والمدينة، حينها هدأَت خطاه، وجلس؛ فلا ينبغي أن يعرض حياة نوال للخطر مهما كلفه الأمر.

كانت الحيوانات الكبيرة نائمة تستريح، أما الحيوانات الصغيرة فأغلبها استغل هدوء الليل وظلمته؛ لتتصرف بحرية أكبر.

جلس يشاهد ويراقب الحيوانات؛ ليهرب من أفكاره، ورغباته الدموية، وكانت الحيوانات لا تحسّ بأنه مصدر خطر؛ لذا لم تهرب من حوله.

خطرت له فكرة؛ لمَ لا يصطاد الحيوانات مثل البشر؟ فهي كائنات غير عاقلة، ولن تجري معه حوار مثلما حدث اليوم.

لم يجرب الاقترب من حيوان من قبل لهذا الغرض، ولكن تعطشه للدماء زيّن له الفكرة، لمَ لا يجرب؟ شعر باشمئزاز عندما اقترب من سنجاب صغير؛ فذلك الشعر الذي يغطي كل جسمه كان مقززًا، ولكنه تذكر نوال، والخطر الذى يعرضها له إذا لم يحاول.

اقترب منه، لم يهرب منه؛ فقد كانت حركته أسرع من استيعاب السنجاب، أحكم قبضته عليه، وانقض على رقبته وغرز بها أنيابه، وحينها زال شعوره بالاشمئزاز قليلًا بالتدريج؛ فقد وجد أن الدماء واحدة، لم يجد اختلافًا كبيرًا، شجعه ذلك، وفى فورة حماسه أخذ يصطاد كل ما يجده أمامه، ويلاحظ الفرق بين كل نوع؛ ليعرف الأفضل بينهم.

لم يلاحظ فرقًا كبيرًا بين أن يتغذى على دماء البشر، أو على دماء الحيوانات؛ فالفرق الوحيد أن رائحته صارت سيئة، ولوّث ثيابه، ولكنه كان يشعر بالامتلاء.

عاد للقلعة رثّ الهيئة، وكأنه سقط من فوق تل، فالتراب والعشب، ووبر الحيوانات يملؤون ثيابه وشعره.

فزعَت نوال حين رأته بهذا الشكل، وقالت:

ماذا حدث؟ هل أصابك مكروه؟

قال مبتسمًا، وقد بدا وجهه ورديًا لأول مرة:

إنني في أفضل حال.

قالت وهي تبتسم، وتضيق عينها علها تدري ما هو الشيء الذى تغير فيه؛ فقد كان مختلفًا:

حسنًا سوف أعد لك الحمام، أين تضع ثيابك لأحضر لك ملابس نظيفة؟

قال بصوت كله حماس كطفلٍ صغير:

يجب أن نذهب لشراء ملابس جديدة؛ فليس لديّ ملابس هنا، كما أني مللتُ من لبس البذل؛ فهي غير عملية، ولا تناسب حياتي الجديدة، لمَ لا تختاري أنتِ لي ثيابي؟ أريد أن أبدو بسيطًا مثلك .

قالت، وقد تأكدت أنه ليس كعادته:

تبدو مختلفًا، ماذا حدث اليوم؟

قال بنفس الحماس:

سوف أخبرك كل شيء بعد أن آخذ حمام، هل تستطيعِي أن تنظفي لي تلك الملابس إلى أن نشتري غيرها غدًا؟

بالطبع، فقط أعطيها لي، وسوف أعيدها لك أفضل مما كانت.

ابتسم لها، وهمّ أن يقبل رأسها، ولكنه تذكر أنه متسخ؛ فتراجع قائلًا:

آسف، كدت أنسى.

ابتسمت له في حنان، ورفعت نفسها على أطراف أصابعها لتصل إليه، وقبلت خده، وقالت: أنت رائع في كل الأحوال.

أسعده لمس شفتيها الرقيقة؛ فلمس خده مكانهما و ابتسم؛ فارتبكت، فهى لم تفكر فيما تفعل؛ فاحمر وجهها، وخرجت بعض الكلمات غير المفهومة منها مبررة ما حدث، ولكنه لم يكن يريد تبريرًا؛ فابتعد وما زالت ابتسامته على شفتيه؛ ليدخل الحمام.

كانت سعيدة بالرغم من ارتباكها؛ فقد أحست به أقرب منها، وهو في حالته تلك، فقد شعرت أنه محتاج لها؛ فهو بالرغم من أبديته، وكل الصفات الخارقة التى حكى لها عنها، ولا يقتنع بها عقلها لازال يحتاجها.

أخذت نوال الملابس من أمام باب الحمام، وأخذت تنظفها بكل ما لديها من مساحيق؛ فقد كانت رائحتها الكريهة شديدة الالتصاق بها حتى نجحت في جعلها ذات رائحة طيبة، ونظفتها تمامًا.

أخذت تجرّب كل الطرق الممكنة؛ لتجفيف الملابس بسرعة؛ فاستخدمت الموقد، ومجفف الشعر حتى تسنّى لها في النهاية أن تجففها.

قالت نوال بصوت منهك:

الملابس جاهزة.

مد يده من خلف الباب لتناوله الملابس، فناولتها له بسرعة؛ فقد أصابها هذا الوضع الغريب بالارتباك.

أحس هو أيضًا بالارتباك؛ فقد بدا أقرب للبشر، وفكر أنه ينسلخ عن طبيعته مع الوقت؛ فقد غيّر مصدر غذائه، وصار يتغذى على الحيونات مثل البشر، كما أنه تخلى عن عزلته، وصار له معارف في المدينة كما حدث له اليوم، فما عاد شبح لا يلاحظه أحد. نظر لمرآة الحمام؛ فوجد شكله صار أقرب للبشر، لم يعد شاحبًا، إنه يتغير، ويحب ذلك.

خرج متحمسًا لمظهره الجديد، بدت البذلة مكرمشة، وشعره مبتل وغير مرتب، وتعلو وجهه ابتسامة حماس.

وجد نوال جالسة على الأريكة تستريح؛ فجلس بجانبها يخبرها بما حدث له في المدينة، ولقائه بالبائعتان، والممرضة سرينا، والطبيب، كانت تضحك؛ لأنها كانت تعرف أنه خرج ينشد الوحدة.

قالت نوال مازحة: يمكننا الآن العيش في المدينة، فقد صار لك الكثير من المعارف هناك.

ضحك؛ فسرحت في شكله الجديد، فقد بدى بشعره المبتل ووجهه الوردي بعيد الشبه بالتمثال الرخامي الذى رأته عليه أول الأمر، إنه يتغير فعلًا.

فاجأته حركة يدها التي وضعتها على صدره، فقال: ماذا حدث؟

قالت بخيبة أمل: لا شيء.

ولمَ تغير وجهكِ إذًا؟

إنك تبدو لي حقيقيًا جدًا منذ عدت من الخارج؛ فظننت أنه ربما يكون قلبكَ بدأ يدق، ولكنه لا زال ساكنًا.

وما يهمك إن دق قلبي، أم لا؟

إنها معتقدات، فقد اعتدنا على ربط المشاعر بالقلب، على الرغم من أن العلم يقول أن العقل هو المسئول عن كل شيء.

قال، وهو يضحك: يبدو أنكِ تغيرتِ أنتِ الأخرى.

قالت في خجل: لقد تغيرتُ منذ زمن بعيد.

منذ متى؟ قالت، وقد زاد ارتباكها:

لا أعرف، دعك من هذا الحديث؛ فأنا لم أعتَد عليه، دعنا نتحدث عمّ أعرف.

قال مدعيًا الجدية: وما هو يا ترى؟

قالت بحماس العالمة: الكتاب، إنه رائع، لو فقط يتوفر لدينا المواد المذكورة به لأمكننا تجربة بعض وصفاته.

يمكننا تدبر ذلك، حددي ما تريدين، وسوف أحاول أن أحضره لك.

حسنًا؛ فلنختَر تجربة بسيطة حتى لا تسبب ضررًا.
وأمسكت دفتر ملاحظتها، وكتبت بعض الأشياء.قالت: إنها أعشاب، وبعض المواد الكيميائية.
حسنًا، ولكن ألا يوجد صورة لتلك الأعشاب؟
صحيح معك حق.
فتحت الكتاب لتريه صور الأعشاب التى تريدها. قالت: سوف أرسم لك كل الأشكال في الدفتر.
إنها موجودة في الغابة.
سنذهب لشراء ملابس لك أولًا.
قال، وهو ينظر لنفسه: معك حق.
توجه إلى غرفته الخاصة، وأحضر بعض المال من التابوت، وهم أن يحملها لينصرفا، ولكنها استوقفته قائلة:من أين لك كل هذا المال؟
قال ببراءة: من ميري؟
كدّرها ذكر اسم ميري، لاحظ تغير وجهها فقبل خدها، وقال مداعبًا:
لا تقلقي، فذلك لن يطول، فقط لا تشتكي حين أصبح عاطلًا.
قالت مداعبة، وهي تعدل وضع شعره بيدها، وتتأمل وجهه:
لن أتركك تصير عاطلًا؛ فسوف أرسل صورك لشركات الدعاية والسينما؛ لتصبح نجمًا سنيمائيًا، أو عارض أزياء، ولكن...
عاد الحزن لوجهها؛ فقال: لكن ماذا؟
حينها سيكون حولك بدل ميري آلاف الفتيات، وكلهن أجمل مني مائة مرة.
أنت أجمل نساء الدنيا في عيني، ولن يغير خروجنا شيئًا.
ابتسمت له، فقد كان بداخلها إحساس أكبر من أن تستوعبه، أو تفسره يؤكد لها صدق كلامه .

الفصل الثاني والعشرون

كان يوم التسوق هو الأروع في حياتهما، لم يتسليا هكذا طوال حياتهما، كان يسيران متشابكي الأيدي في مرح، ويضحكان على طول الطريق.
كان الظلام شديدًا، ولكنها لم تكن خائفة؛ فهو معها.
اشتريا ملابس له، وبعض المستلزمات الشخصية لكليهما.
اشترى لها ورود حملتها بحنان، وتركت له باقي الحقائب ليحملها، مرّا على محل للخضروات اشترت منه بعض الفاكهة كما كانت تفعل سابقًا.
قال: لمَ لا تحضرين بعض الخضروات؛ لتطهي طعامًا حقيقيًا لكِ؟ فقد كنت ستعدين الطعام سابقًا، أتذكرين؟
هذا حين كنت ستأكل معي، أما ما دُمتُ سآكل وحدي فلا داعي للطهو إذًا.
قال في أسف: اعذريني يا نوال؛ فقد كنت أتمنى أن أشارك الطعام، ولكن أعدي الطعام، وسوف أجلس معكِ على الطعام.
لا داعي؛ فأنا لا أستحق المجهود الذي كنت سأبذله للطهو؛ لقد كنتُ سأفعل ذلك من أجلك. حسنًا، إن كنتِ ترين نفسك هكذا، فسوف أعد لك الطعام بنفسي.
نظر للخضار في حيرة شديدة، ثم قال: فقط ساعديني.
ضحكت، وقالت: حسنًا.
أخذت تتفحص الخضار باهتمام، وهو ير اقبها مثل طفلٍ صغير، كانت عيناه تشعان، وبدا أكثر و اقعية وشبهًا بالناس حوله ببنطاله الجينز الجديد، وقميصه الأبيض ذو الخطوط الرفيعة زرقاء، ووضع على كتفه بلوفر أزرق اللون تحسبًا من برودة الجو، كانت ملابسه بسيطة أقل إلفاتًا للنظر من بذلته الفاخرة التي كانت تعطيه منظرًا متعاليًا.

لاحظ أن الناس تبادلهما ابتسامات ودودة، ونظرات كلها عطف، لم يحدث معه ذلك من قبل؛ فلم يسبق أن نظر إليه أحد كل تلك المدة دون سبب، ولكنه كان يرد الابتسامة بابتسامة صغيرة مترددة.

كان لا يعرف لذلك سببًا، ولكنهما بدا للناس حولهما كزوجين في بداية حياتهما، يتجادلان كثيرًا عند كل بائع، ويشترون ما تريده هي في النهاية، وهذا كان سببًا كافيًا لابتسام من ير اقبهما.

تذكر موعده الدائم مع الشمس، كاد أن ينساه لأول مرة في حياته؛ فقال في ارتباك: هيا لنعود للبيت؛ فلدينا الكثير بالفعل.

لاحظت ارتباكه، ولم تشأ أن تزعجه؛ فردت ببساطة: حسنًا.

أمسك يدها، وأسرعا الخطى حتى وصلا للغابة، وهناك حملها والحقائب، وطار مسرعًا للقلعة، بدا الاضطراب عليه، فلم تنطق بكلمة إلى أن وصلا للقلعة حينها بدأ يهدأ، وتزول عن ملامحه مظاهر القلق القاتل تلك.

قال مبتسمًا ؛ليزيل ما علق بينهما من توتر:

أستخبريني كيف أعد الطعام المفضل لحبيبتي؟

اتسعت عيناها، وزادت ضربات قلبها ولم تنطق، تعرف أنه يشعر بها، لكن ما كانت تجرأ على أن تسمّي تلك المشاعر بالحب، وما كانت تتخيل أن يدعوها حبيبته.

قال وقد لاحظ شرودها: هاي... أين ذهبتِ؟ لديّ فطور أعده غدًا؛ فأخبريني ماذا أفعل حتى أفاجأها في الصباح؟

قالت: لمَ لا نستريح الآن، وأعده معك غدًا، وبذلك نتسلّى أكثر.

قال، وقد ر اقت له الفكرة: حسنًا، تصبحين على خير.

قبّل رأسها، ثم مال على خدها، فبعدت ضاحكة، وقالت: أرى ألا نقترب من بعض كثيرًا، فلنا تجربة سيئة في ذلك.

حسنًا، مع أني لن أكررها، أعدك.

قالت، وهي تبتسم:

أتعرف، لقد نصحتني سرينا أن أجعلك تعيش معي بالنهار حتى تكون لي؛ فجعلتني أعيش معك في الليل.

قال، وهو يضمها إليه:

المهم أن نعيش معًا.

قالت وهي تتثاءَب، وتسند رأسها على كتفه:

لا تنسَ أن تحضر الأشياء التى دوّنتها لك في الورقة؛ لنبدأ العمل غدًا.

بدت آخر كلماتها غير واضحة من تأثير النوم، حملها بين يديه، ووضعها برفق على السرير، غطاها وجلس يتأمل القائمة التى أعدتها له في حيرة شديدة.

أتراه قادرًا على جلب كل تلك الأشياء الغريبة؟ وإذا أحضرها؛ أتراهما ينجحان في تجاربهما؟ ولو نجحا كيف سيساعدهما ذلك على التخلص من ميري؟

أمسك رأسه بيده، وقال:

آه... ما عاد يمكنني الجلوس خالي البال ولو لدقائق.

الفصل الثالث والعشرون

استيقظَت نوال على صوت الأواني وهو يحاول الاختيار في أيهم يعد لها الإفطار، لم يكن لديه أي فكرة عمّ يمكن أن يكون عليه طعام الإفطار، ولا ما يمكنه أن يفعله بتلك الخضروات والتوابل، والأشياء الأخرى.

قالت في مرح: أراكَ تنوي البدء من غيري.

لم أشأ إزعاجك.

أمسكت طاسة صغيرة وأعطتها له، وأشعلت الموقد، وقالت:

ضع هذه هنا، حسنًا؟ وضع ملعقة من الزبد من هنا بها.

فعل ما قالته بحذر شديد؛ فقد كانت ميري تخوفه كثيرًا من النار؛ لذا يصعب عليه التركيز أمامها، ولكنه لم يشأ أن يخذل نوال؛ فقد كانت سعيدة بفكرة إعداده الإفطار لها.

قالت، وهي تشير لعلبة بها بيض: خذ بيضة، واكسرها بالمعلقة، ثم أفرغها في الزبد.

فعل ما قالت، ورشت هي بعض الملح والفلفل عليها، ثم قالت له:

ضعها في هذ الطبق.

فعل ما قالته، وهو منتظر باقي التعليمات، كان متحمسًا جدًا، فأخذت عدة أطباق ووضعت بهم بعض الجبن، وطلبت منه أن يقطع بعض الطماطم والخيار لشرائح، فعلها بسرعة كبيرة؛ فهو يجيد استخدام يديه.

قال وهو يبتسم في حماس: ماذا بعد؟

لا شيء، لقد أعددت لي إفطارًا شهيًا، شكرًا لك.

وضع على المهد لوحًا خشبيًا؛ ليصنع منه منضدة، ووضع عليها الطعام، ووضع الكرسيان بجانبه، وقال بانحناءة تمثيلية:

أي أوامر أخرى؟
قالت وهي تضحك، وقد أمسكت يده لتجلسه بجانبها: فقط ابقى معي.
قبّل يدها، وجلس يتأملها، قال: هل أعجبك الطعام؟
عبّرت بيدها ووجهها تعبيرات مبالغ فيها عن روعة الطعام الذي صنعه، ابتسم لها فهو يعرف أنها تجامله.

كانت علامات الحيرة بادية على ميري، وهى تبحث بين أغراضها المتعددة عن كتاب التركيبات السحرية، إنها لم تفقد شيئًا أبدًا.
إنها لم تضطر إلى التخلي عن فوضويتها يومًا؛ لتجد ما تريد، ولكنها اليوم تكاد تُجنّ.
أين اختفى هذا الملعون؟ قالتها بصوت أقرب للصراخ.
إنها لم تستخدمه من فترة طويلة حتى قبل أن يزورها، سألت نفسها:
أيكون هو؟ مستحيل.
جلست تقلب باقي الاحتمالات في رأسها؛ فلم تجد مبررًا لاختفاء الكتاب غير أنه سرقه. ملأها إحساس باليأس تحوّل إلى ألم، سرعان ما فار غضب بداخلها، إنها ستلقنه درسًا على ذلك هو وتلك البشرية الحقيرة.
تلفتَت حولها في حركات سريعة عصبية، وقع نظرها على زجاجة بها سائل بنفسجي اللون، حملتها بابتسامة خبيثة وترقعت بأصابعها؛ فاختفت من جحرها، وظهرت بالقلعة.
كانا لا يزالان جالسان للإفطار، مد يده بشريحة خيار يطعمها لنوال، فجأة أهتز المكان، وتردد في أنحاءِه صدى ضحكة شريرة، وقفا فزعًا؛ ليتبينا الأمر.
كانت ميري تحوم حولهما، مما اضطرهما للدوران ليرياها.

قال في غضب: توقفي يا ميري عن تلك السخافات.
قالت ميري بسخرية: آسفة يا عزيزى، هل قاطعت جلستكما؟ أكنتما تأكلان؟ آه نسيت أنك لا تأكل إنك....
قالت، وهى تلمس شعر نوال: ألم تخبرها؟
تملكه الارتباك، وترددت عيناه حائرة بينهما، وقال بنبرة حانقة:
هذا ليس من شأنك.
قالت ميري بابتسامة تقطر سُمًّا:
لا يا عزيزي، كل ما يخصك هو شأني، أنت ملكي حتى وإن لم أكن أتباهى بذلك سابقًا، ولكنك الآن تحتاج لتذكر ذلك، أنت مِلكي.
قال ضاحكًا، وقد بدا أكثر شرًا وتحفزًا:
أنا لستُ ملكًا لأحد، إنك تُهزِين، ربما كان ذلك من تأثير السن، لمَ لا تشربين من تركيباتك ما يعيد لك عقلك مثلما تعيد لك شبابك؟
تملكّها الغضب واحمرت عيناها، وقالت: إنك أحمق كأبيك.
قال بنبرة قوية متحدية لم تسمعها منه من قبل:
بمناسبة أبي، لما لا تخبريني بما حدث له بالضبط؛ فأظن أن الآن هو الوقت المناسب لذلك.
قالت ميري بغضب، ولكن صوتها كان يرتجف: لقد أخبرتك من قبل، إنك صرتَ غبيًا مثلهم، انظر إلى نفسك... ما هذه الثياب الرثة؟ وشعرك صار أشعث، إنك تنتهي، أَفِق.
قال، وهو ينظر لنوال؛ ليطمئنها أنه معها:ربما ليسوا سيئين جدًا لأكون مثلهم.
هالتها الصدمة وكادت تترنح؛ إنها فقدته و انتهى الأمر، ثارت ورفعت نوال عن الأرض بحركة من يدها، همّ أن يهجم عليها، ولكنها رفعته هو الآخر بحركة من يدها.

قالت ميري، وهي تخطو خطوات بطيئة:
إنك قربتَ النهاية، لم أكن أريدها على يدي، ولكن هذه رغبتكما.
نظرت حولها تتأمل المكان، وقالت بصوت عميق:
إن أحد عيوب الأبدية أنك تشاهد نفس الأحداث تتكرر مع تغير الأشخاص؛ فمثلا منذ أكثر من مائة وخمسين عام تقريبًا كان حبيبى جيمس وتلك البشرية الحقيرة التي لا تستحق الذكر مكانكما، وكان صوت توسلاتهما لأرحم صغيرهما يختلط بدموعهما.
قالت، وهي تنظر له:إنه منظر مؤثر جدًا.
قاتلة. قالها بصوت مخنوق .
ضحكَت ميري ضحكة مجلجلة، وقالت:
قاتلة؟ وماذا تكون أنت؟ ملاك الرحمة؟ أنك كأبيك، ولكن أتدري أنه كان أكثر شجاعة منك في مواجهة قدره؛ فلم يلجأ لحيلٍ رخيصة.
قال: عن ماذا تتكلمين؟
أين كتابي؟
قال بإصرار: لن أعطيكِ شيئًا.
لا تجبرني على حرق المكان بالكامل.
إنكِ بلهاء غريبة، إنني لم ألاحظ ذلك من قبل.
قالت نوال لميري محاولة أن تنهي الأمر: حسنًا، إن كان كل ما تريدينه هو الكتاب، فإنه داخل المهد أسفل اللوح الخشبي.
توجهَت ميري إلى المهد وألقت اللوح وما عليه من أطباق طعام على الأرض، وجدت الكتاب بداخله.
قالت ميري بسخرية: شكرًا، يبدو أن البشرية أذكى منك؛ لذا أظن أن كلامي سيكون معها من الآن.

قال صارخًا:

لا، كلامُكِ معي دائمًا.

تجاهلته و اتجهت لنوال، وعيناها تلمعان بحماس، وقالت:

سأعرض عليكِ عرضًا لن أكرره.

قالت نوال: ما هو؟

قالت ميري، وهي تتمشّى بينهما:

إما أن أقتلكما، أو تشربي ما في هذه الزجاجة الصغيرة، و أترك حبيبك يعيش للأبد.

قال: لا، لن تشرب شيئًا.

ولكن نوال أخذت منها الزجاجة، و ابتسمت له مودعة، وقالت لميري قبل أن تشرب: ما الذي يضمن لي أنكِ لن تؤذيه؟

قالت ميري بابتسامة ماكرة:

إنكِ مشكلتنا، حين تنتهين ستنتهي معك خلافاتنا.

شربت نوال الزجاجة، وقعت الزجاجة من يدها، وتحولت نوال لتمثال.

اختلط صوت صراخه بصوت ضحك ميري، قالت له:

أرأيت كم أنا عطوفة، لم أتركك وحيدًا فتركت لك ذكرى لنزوتك.

اختفت ميري، وشعر بزوال قيوده الخفية؛ فاتجه لنوال، وجدها كتمثال من ثلج بالرغم من أنه لا يحس بقلبه، شعر أنه قد انخلع من بين ضلوعه في تلك اللحظة.

الفصل الرابع والعشرون

حمل نوال، ووضعها على الفراش برفق، كان يعرف أن ذلك لا يفيد، ولكنه أراد أن يفعل أي شيء لها.

جلس بجانبها كما كان يفعل حين كان ينتظرها لتصحو من نومها، ولكنها لن تصحو، وضع عليها أغطية في محاولة يائسة منه ليدفئها، فربما تعود لها الحياة، لكن لا شيء يحدث.

أخذ يدور في المكان؛ علّه يجد شيئًا ما يساعده، وأخذت عيناه تدوران في المكان حتى وقفت على الساعة، تجمد في مكانه؛ أحس بأنه قد سقط في هوة عميقة؛ فهو أصبح عالقًا في هذه اللحظة إلى الأبد؛ فقد توقفت الساعة، ولكنه توقف مختلف، تأملها كانت حبات الرمال عالقة في الفراغ، إنها جُمدَت مع نوال، إن الحكاية لم تنتهِ إذًا، ولكنها جُمّدَت فقط.

صارت أيامه ثقيلة تتكرر كلعنة تحوطه، كان ينظر لنوال طوال النهار، ويذهب للصيد بالليل، ويعود ليأخذ حمّامًا ويبدل ملابسه، ويستلقي بجانبها، ويحكي لها ما حدث له في الصيد، وما رآه من عجائب الحيوانات، وبالرغم من أنها لا تجيبه كان يضحك كثيرًا وهو يحكي لها، ويتخيل أنها تجيبه، لم يكن يعرف يومًا أنه يستطيع أن يتخيل... أن يحلم... أن يحب.

لقد صار مختلفًا، لا يستطيع إنكار ذلك، وهو يحب نفسه الجديد، ولا يريد العودة لما كان عليه.

قال بصوت به قوة وإصرار: لن أستسلم لها، ولن أتخلّى عنك.

وجه حديثه لنوال، وأكمل: ولكن ماذا أفعل، وقد جمدتكِ وأخذت الكتاب؟

رنّت كلمة الكتاب في أذنه، وقال في حماس:

نعم، إنه الحل، لو لم يكن الكتاب مهمًا لما ثارت من أجله ميري كل تلك الثورة،

وما كانت قطعَت أي ود بيننا من أجله، إن الكتاب به ما يهددها.
عاد لحزنه قائلًا: ولكنه ضاع.
نظر لنوال في أسف، وقال: أنا آسف؛ لأني خذلتكِ، كان يجب أن أحضر ما طلبتيه مني في حينه.
توقف ثانية؛ فقد تذكر دفاتر ملاحظات نوال، وقال وهو يقبلها:
إن الحديث معكِ مفيد حتى و أنت هكذا، أنها الدفاتر.
أخذ يبحث عنها في كل مكان حتى يأس أن يجدها، وجلس، ثم قام مسرعًا، وعاد يحمل رزم كثيرة من المال، وأحضر حقيبة ملابسه وحقيبة نوال؛ فقد قرر أن ينهي حياتهما في البحر الذي لطالما تمنت أن يلتقيا عنده.
فتح حقيبته، ووضع فيها أغراضه والمال، وفتح حقيبة نوال ليضع بها باقي الأغراض؛ فوجد الدفاتر والأقلام موضوعة في الجيب العلوى للحقيبة، ابتسم، وقال لنوال: آه، نسيت كم أنتِ منظمَة، وبحثت عن الدفاتر بفوضويتى.
حمل الدفتر والأقلام، وعاد ليجلس بجانبها.
كانت نوال قد بسطت كل شيء في الكتاب ليفهمه، وهو لم يبذل أي جهد ليفهمه سابقًا، ولكنه مضطر الآن أن يفعل، وبمفرده؛ لذا أخذ يقرأ كل حرف بكل ما لديه من تركيز ووعي؛ فهذا أمله الأخير.
وجد بين دفاتر نوال ورقة كُتبَ عليها رقم هاتف وعنوان سرينا... وضعه في محفظته، عاد ليركز... دعك رأسه بكف يده محاولًا أن يستوعب كل هذه المعلومات، إنها تراكيب معقدة. عاد لتأنيب نفسه: ليتني فعلت ما طلبتيه مني فورًا، لما كنتُ محتارًا وحدي الآن.
أخذ يقلب في الدفاتر متعجبًا: إنه كتاب صغير لتخرج منه كل تلك الملاحظات، لقد ملأت ثلاث دفاتر.

يأس من أن يفهم كل ما فيهم، أخذ يقلب الصفحات ويشاهد الصور ويبتسم، قال: إنك بارعة في الرسم، كان يمكن أن تصبحي رسامة؛ فبداخلك فنانة؛ لذا تحبين منظر الشمس والبحر كثيرًا.

شعر بتأنيب؛ لأنه حرمها من متعة بريئة كالتنزه على البحر، شعر ببشاعة حقيقته، قال وهو يبكي بلا دموع؛ فليس لديه دموع يبكيها بها:

أعدكِ حين ينتهي كل شيء سوف نذهب للبحر، وسوف تستمتعين بأشعة الشمس كما تحبين، أعدكِ أن أفعل ولو كان آخر شيء أفعله في حياتي.

أخذ يقلب صفحات أحد الدفاتر، وجد فيه صورة لبوصلته؛ فابتسم قائلًا: أخيرًا وجدت شيئًا أعرفه.

قام، وأحضر البوصلة من جانب الساعة حيث وضعها، وعاد ليقرأ ما كتبته نوال عنها: إن هذه البوصلة نادرة، وهي تساعد في العثور على أي شيء أو كائن بمجرد ذكر ما تريده أمامها، تبدأ البوصلة في التحرك، وهي تعرف ما تريده أكثر منك؛ فيمكن أن تقول أهميته، أو صلته بالشيء، وهي تعرف ما هو.

ابتسم، وقال: بسيطة.

قرب البوصلة من فمه، وقال: حياتي.

تحركت أبرة البوصلة ناحية نوال.

ضحك، وقال: لقد فهمتِ، تبدين ذكية.

جلس يفكر ما الذي يبحث عنه، وأي كلمة تعبر عنه.

قال؛ ليرتب أفكاره بعد أن وضع البوصلة في مكانها بجانب الساعة:

إنني أريد أن تنتهي لعنة نوال ولعنتي، ولكن نوال أهم؛ فما الذى ينهي تلك اللعنة.

قام، وهو يسير في الحجرة ذهابًا و إيابًا، إلى أن قال:

خلاصُ نوال، نعم؛ فأنا أبحث عن خلاص نوال، ولكن...

أحس باختناق، ونظر لنوال في ألم، وقال في شرود:
ماذا لو كان خلاصها في البعد عني؟ ماذا سأفعل؟ لا؛ فلأدع البوصلة جانبًا، و أبحث عن حلٍ آخر، لعل تلك الدفاتر تحوي شيئًا مفيدًا.
عاد يقلب في صفحات الدفاتر، ولكنه كان شارد الذهن عمّ فيها، ترى أيكون هو سبب عذابها؟ لو كان يحبها حقًا لما سيطرت عليه أنانيته؛ لكان فضّل حياتها على حياته.
نظر لنوال، وقال: سأبحث عن خلاصك حتى وإن كان البعد عني.
مشى بخطى بطيئة على غير عادته، وحمل البوصلة باهتمام وقربها من فمه، وقال هامسًا علها لا تسمعه:
خلاص نوال.
تحركت البوصلة في كل مكان، ثم توقفت على نوال، لم يكد يستوعب الأمر حتى عادت البوصلة للحركة، وهذه المرة توقفت عليه، غاص قلبه من الخوف وارتبك، وقبل أن يسألها ماذا يعني ذلك؟ تحركت ثانيًا، ولكنها أشارت لاتجاه آخر، خشي أن تكون تشير إلى ميري، ولكنها كانت تشير إلى اتجاه أخر.
وضع نوال في تابوته؛ فهو يعلم من ميري أنه مسحور، ولا أحد يمكنه إيذاء من بداخله، وضع معها البوصلة والساعة والدفاتر والمال، وأغلقه.
فكر للحظات أن يحمله معه، ولكنه تراجع في آخر لحظة؛ فهو لا يدري ما سيواجهه؛ فأعاد فتحه، وأخذ البوصلة وقبل نوال، كانت باردة كالثلج، وأعاد غلقه ووضعه في حجرة أخرى حتى تنظن ميري أنه أخذه لو عادت للبحث عنه، وطار آملًا أن يجد ما يبحث عنه سريعًا.

الفصل الخامس والعشرون

لم يبعد كثيرًا مثلما حدث له عندما كان يبحث عن نوال؛ فلم تمضِ ساعات قليلة حتى أشارت إبرة البوصلة إلى مزرعة صغيرة، سار قربها؛ ليتبين الأمر.

سمع نباح الكلاب تبعه صوت عيار ناري في الهواء؛ لإرهاب المتطفل، لم يفر ولم يهتز، بل وقف منتظرًا.

أخذت إبرة البوصلة تهتز باتجاه المزرعة، وثبتَت على شبح رجلٍ طويل القامة قوية البنية يحمل بندقية، كان كلما اقترب زاد وضوحًا، كان الرجل يحمل كشافًا وجهه إليه، وقال: ما الذي أتى بكَ إلى هذا المكان الآن؟

نظر إليه الرجل متأملا، ثم أكمل: هل أنت هارب؟

لم يفكر كثيرًا ليجد كذبة مناسبة، فقال:

نعم.

ولكن صاحب المزرعة لم يتأثر لذلك، بل قال ببساطة وكأنه كان ينتظره:

حسنًا، تعالَ معي.

مد صاحب المزرعة له يده، و اقترب منه مصافحًا، وقال: ألبِرت.

لم يدري ماذا يقول، ولكنه مضطر لأن يعطي ردًا لِعَينَي ألبرت المنتظرة، فقال:

جيمس.

فلم يجد إلا اسم أبيه، فهو لا يعرف الكثير من الأسماء.

ظهر على وجه الرجل الألم عند سماع هذا الاسم، ولكنه زاد حرارة الترحيب.

قال ألبِرت: تفضل جميس، إنه اسم رائع.

قال، وهو يبتسم: نعم هو كذلك.

كان يختلس النظر للبوصلة، فيجدها تتحرك مع ألبِرت؛ لذا تأكد أنه وجَد من يساعده هو ونوال.

تأمل الرجل؛ كان قويًا وشابًا ويشبهه إلى حد بعيد، لكن بشرته كانت أكثر حمرة وتألق، ويبدو عليه النشاط في مشيته؛ فهي سريعة تكاد قدماه تلمس الأرض.

قال ألبرت: إنني أقوم بمعظم الأعمال أثناء الليل؛ فالنهار لدينا قصير كما تعلم.

نعم، أنا أيضًا أفضل الليل.

ولكني سأستريح الآن، تفضل معي.

أشار إليه وهو يدخل البيت أن يتبعه، لقد كان الباب مفتوحًا، كان بيتًا صغيرًا به أثاث قليل، وكانت الستائر سوداء؛ فظهرت الدهشة عليه، فقال ألبرت موضحًا: إنى لا أحب الإزعاج حتى لو كانت الشمس.

ضحك ألبرت وابتسم هو، أضاء ألبرت المصباح الكهربائي، فظهرت حجرة جلوس بها أريكة وعدد من الكراسي، وجهاز تلفاز يبدو على الحجرة أنها تُستخدم كثيرًا، وأنه يستقبل الكثير من الضيوف.

سمع صوت أنثوي أتى من الداخل:

لقد رتّبتُ لك البيت ألبرت، هل تريد أن أوقظكَ في ساعة معينة؟

كانت سيدة عجوز في السبعينات، أو أكثر تبدو ضعيفة، ولكنها نشيطة بالرغم من ذلك، رأته فابتسمت، وقالت: لدينا زائر، سوف أعدّ لك العشاء.

قال بسرعة: لا... لا أريد، لقد أكلتُ كثيرًا قبل أن آتي إلى هنا.

نظر ألبرت بطرف عينيه، وابتسم ولم يعقب، التفت إلى السيدة قائلًا:

اتركيه على راحته سوزان.

واتجه لحجرة، وأشار له قبل أن يفتحها قائلًا: ستنام هنا، إنها حجرة ابني جميس؛ فهو مسافر.

قال في ارتباك: ابنك اسمه جميس.

قال ألبرت، وهو يبتسم : أليست مصادفة رائعة؟

قال: نعم، إنها كذلك.

دخل الحجرة، لم يجد فيها سوى أريكة كأريكته الموجودة بالقلعة، شعر أنه صار قريبًا جدًا من معرفة الحكاية كاملة.

قال ألبرت: هل أعجبتْك؟

كثيرًا، إنها رائعة، شكرًا لك.

قال ألبرت، وعيناه تلمعان في سرور بالغ: مرحبًا بك.

خرج ألبرت، وأغلق الباب خلفه.

جلس على الأريكة ونظر للسقف، شعر بهدوء عجيب قد نسيه منذ تحركت الساعة، لولا أنه قد ترك نوال في القلعة وحدها؛ لكان في أهنأ لحظاته الآن.

شعر بحركة في الخارج؛ فخرج باحثًا عن مصدر الصوت، وجد بابًا فتسلل إلى أن وصل إليه، كان الصوت رتيب لحركة تتكرر، لم يستطع استنتاج ما يحدث، ففتح الباب قليلًا؛ ليرى ما يحدث في الداخل.

كان ألبرت جالسًا يلصق علامات على الفاكهة، ويفرزها بيديه ثم يرصها بداخل صناديق ورقية ويغلقها، ويرصها بجانبه كل ذلك بسرعة كبيرة جدًا، لم يشعر بنفسه إلا وهو يقترب منه؛ كأن شيئًا خفيّ يجذبه حتى جلس أمام ألبرت.

قال ألبرت: لم تستطع النوم أنتَ أيضًا.

نعم.

منذ أن غادر جميس لم أعد أستطيع أن أرتاح؛ فالراحة لم تعد موجودة؛ فقد غادرتني معه.

تنهد ألبرت، وحاول أن يغير مجرى الحديث، فقال:

تفحّص الفاكهة هكذا، ثم ضع كل واحدة في مكانها بالعلبة بعد أن تضع عليها إحدى تلك اللاصقات، إن الأمر بسيط، وبعد فترة ستتقنه، وتصير تقوم به دون أن تنظر إليها.

فعل مثلما وضّح له ألبرت ابتسم، وقال: إن الأمر بسيط.
قال ألبرت: إنه مشروع عائلي لي ولابني، ولابن ابني.
لمعت عينا ألبرت ثانية، كأنها تهمّ أن تقول أكثر مما يخبر هو.
قال: هل لكم جيران وأصدقاء؟
قال ألبرت بسعادة: نعم لدينا، ولكننا كلنا مزارعون، ونكون مشغولين أغلب الوقت، خاصة في أوقات المواسم كالآن.
قال ألبرت وهو يقترب منه، وكأنه يدلي له بسره:
أغلب أصدقائى يتسللون من أعمالهم وعائلاتهم، ويأتون إلى هنا لنقضي معًا أوقاتًا رائعة، نشاهد المباريات، ونلعب الورق، وأحيانًا نشاهد الأفلام، وأغلب الأوقات نتحدث عن حياتنا ومشاكلنا، ونساعد بعضنا لو أمكننا ذلك، ونضحك كثيرًا، إنهم مجموعة رائعة لو بقيتَ بعد فترة الحصاد ستقابلهم جميعًا.
جاءت كلماته الأخيرة، وكأنها توسل له للبقاء، فقال في تردد:
لا أستطيع البقاء هنا كثيرًا؛ فلدىّ أمور معلقة يجب أن أنهيها بنفسي.
قال ألبرت باهتمام صادق:
ما هي؟ أخبرنى لعلّي أساعدك.
ليس الآن، سأخبرك كل شيء، ولكن في حينه.
حسنًا كما تشاء، أرأيت أنك صرتَ تجيد العمل حتى دون أن تنظر.
فقد صار يضع الفاكهة، وهو يتحدث مثلما يفعل ألبرت، كان سعيدًا بأن له عملًا، ودّ أن يطير؛ ليخبر نوال بأن له عملًا وعائلة.

الفصل السادس والعشرون

كان يطيل النظر إلى ألبرت؛ فلم يكن مصدقًا بعد أنه أمام جده الذي حكت له ميري عنه حكايات فظيعة، إنه يبدو رقيقًا قويًا، ولكنه لا يبدو عنيفًا كما كانت تحكي عنه، ودّ لو سأله، ولكنه لم يدرِ كيف يبدأ، أو من أين ،كما أنه كان يخشى على نوال منه، ولكنه يعود ويتذكر أن ميري قد ظهر له كذبها وخداعها في النهاية؛ فكيف يصدقها في كل ما حكته له، إنه مضطر أن يبني وجهة نظره الخاصة، ويُنحّي جانبًا كل ما عرفه عن طريق ميري؛ فقد ثبت خطأ معظمه إلى الآن.

قال ألبرت: لقد أتممنا فرز المحصول، إنه عمل رائع بالنسبة لقلة الوقت والعدد.

ابتسم، فقال ألبرت: إنك تذكرني بابنى كثيرًا.

كانت نبرة صوته بها حزن صادق وعميق أثّر فيه، فقال: ماذا حدث بينكما ليغادر؟

لا شيء، لقد كانت علاقتنا رائعة، حتى تعرف على صديقة له؛ فتغير كل شيء.

قال بلهفة: كيف؟

لاحظ ألبرت لهفته لمعرفة الحكاية فابتسم، وقال: كان صغيرًا لا يعرف الكثير عن الحياة، وكانت روحه طو اقة للحياة ومتعها، لم تعجبه حياة المزرعة، ولكنه لم يكن يصل بخياله وحده لتركنا.

تنهد ألبرت، وسكت مستغرقًا في ذكرياته؛ فتعجله قائلًا: لمَ غادر إذًا؟

ابتسم ألبرت، وقال: سأحكي لك كل الحكاية، فأمامنا الكثير من الوقت حتى تغيب الشمس.

عرف أنه قد عرفه؛ فهو يشبه أبيه كثيرًا، ابتسم وأطرق في تأثر، كان يود أن يحضنه، لكن الأمر أخذ من تفكيره أكثر مما ينبغى حتى فات الآوان.

قال ألبرت: بدأت الحكاية عندما كان أبي الكونت دراكولا مريضًا، كان شابًا رائع الجمال حزنَت عليه البلاد، وذات يوم تسللت إحدى الساحرات التي كانت تحبه سرًا إليه، كان شاحبًا وقد أنهكه المرض، لم يرَها جيدًا، سقته من زجاجة صغيرة وقبلته، و انصرفت دون أن يراها أحد.

وفي المساء على صوت الصراخ حزنًا على الكونت؛ فقد سلّم الروح، وُضع في التابوت، وحملوه، ومشي خلفه كل أهل البلد ودفنوه.

مر عليه الليل، وشعر بالحياة تعود إليه ثانية، أفاق فأصابه الفزع لوجوده داخل التابوت، أخذ يدفعه، لم يكن يدري أنه صار أقوى مما كان؛ فكان يدفعه بأقصى طاقته؛ فاندفع غطاء التابوت بعيدًا في الهواء دافعًا معه التراب في كل مكان.

كان الظلام شديدًا، تلفت حوله ولم يدرِ ماذا يفعل؟ فما حدث لا يمكن تفسيره.

عاد للقلعة، صُعقَ كل من رآه من المفاجأة، ظنوه شبحًا، لم يهتم بهم... سار إلى أن دخل غرفته، أغلق الباب تاركًا خلفه الفوضى التى عمّت المكان.

كان سعيدًا؛ فهو حي، نظر لنفسه كان شاحبًا، وقد اتسخت ملابسه؛ فذهب لأخذ حمام، وبدل ملابسه.

خرج الخدم من القلعة فزعين، وانتشر خبر ظهور شبح الكونت في القلعة، ذهب بعض الأهالي ليتفقضوا القبر؛ فوجدوه فارغًا، فعلموا أن من بالقلعة ليس شبح الكونت؛ بل هو الكونت نفسه، ولكن ذلك لم يقلّل الرعب الذى تملكهم جميعًا.

خرج الكونت من الحمام، وجد فتاة جميلة في حجرته.

قال لها: لمَ لم تهربي مع الآخرين؟

قالت: ولمَ أهرب؟

قال بابتسامة ماكرة: لأني ميت.

قالت وهي تضحك: حقًا؟!

اقترب منها، كان لها رائحة لم يعتد عليها، لم تكن رائحة عطر إنما هي رائحة تثير فيه رغبة بأن يقترب منها، كان شعورًا غريبًا لم يحاول تفسيره؛ لأنه مسيطرٌ عليه؛ فاستسلم له.

جلس بقربها وداعب شعرها، أسعدها ذلك كثيرًا، اقترب منها فراوغته، وقالت بدلال: إنك لم تسألني من أنا حتى.

لا يهم.

قالت بغضب: لا يهم، بعد كل ما صنعته لك.

قال بابتسامة باردة: وماذا صنعتِ لي؟

لقد أعدتُك للحياة.

جمدته الصدمة، إنه فعلًا كان ميتًا، ولم يكن كل ذلك خطأ.

قال -ولم يكن قد استوعب الأمر-: ماذا؟!

لقد وهبتُك حياة أبدية، إن الشخص الذى يعرفونه قد مات، وأما أنت فملكي أنا وللأبد.

ومن أنتِ؟

أنا إليز ابيث، نادني ليز.

حسنًا ليز، هلّا أوضحتِ لي كلامك أكثر.

جلس وتناول كأسًا ارتشف منه، لكنه لم يجد طعمه كما اعتاد فبسقه، والتفت إليها قائلًا:

إن الخدم بدّلوا محتويات البيت بعد أن ظنوا أنني مت، كلاب.

لا تظلمهم، إنهم لم يغيروا شيئًا، أنتَ الذي تغيرت، دعني أخبرك الحكاية كاملة.
أمسكَت يده وأجلسَته أمامها، وقالت وكأنها تكلّم شخصًا بطيء الفهم:
إنني زرتك قبل أن تموت، ألا تذكر؟
قال بارتباك لنسيانه لها تمامًا: لا.
قالت بابتسامة لاهية: هذا ليس مهمًا، المهم أنك لي الآن، لقد أعطيتك جرعة من تركيبة سحرية؛ لتعيدك للحياة.
قبّل يدها، وقال: إنكِ فعلًا ملاك.
صمت قليلًا، وقال: ولكن لماذا؟
قالت دون تردد: إنك لم تكن تراني، حجبَتْني عنكَ صديقاتك الحسناوات؛ لذا فكرتُ أن تكون لي وحدي، وهذا بدا مستحيلًا في حياتك الأولى؛ لذا أعطيتك حياة ثانية لتحياها لي.
قال مستفسرًا في ذهول: أتحبينني لهذا الحد؟
قالت، وهي تقبله: أكثر مما تتخيل.
ضحكا بهستريّة، وقال: إنني سأقيم حفلًا لم تشهد مثله البلاد احتفالًا بذلك الحدث الرائع.
قالت بغضب: و أنا؟!
و أنتِ ستحضرين بالطبع، إنكِ ضيف شرف الحفل؛ فالحفل بمناسبة حياتي الجديدة، والفضل في ذلك لكِ.
لا أريد حفلًا؛ فالأفضل أن نبتعد عن الناس، ونعيش وحدنا.
لا أستطيع؛ فأنا لي هنا أصدقاء و أقارب، أنا أقدّر ما قمتِ به من أجلي، ولكن أنا آسف؛ لن أترك حياتي هنا من أجلك.
ابتسمت ابتسامة ماكرة، وقالت: لكَ ما تريد.
اقترب منها، وقال بابتسامة لاهية: ألن نحتفل اليوم؟

بل أجّله إلى ما بعد الحفل.
اختفت قبل أن يجادلها محاولًا اقناعها بالعدول عن رأيها.
سمع طرقات رقيقة مرتعشة على الباب، قام فوجد فتاة رقيقة القد والملامح تقف مرتعشة، قال بابتسامة واسعة مرحبة: ميري حبيبتي.
أمسك يدها؛ ليهدّأها، قالت بأنفاس متقطعة، وصوتٍ باكٍ:
إنك عدتَ حقًا، لم أصدق كلامهم بعضهم، قال إنك شبح، ولكني جئت؛ لأراك حتى لو كنت شبحًا.
قال وهو يمسح دموعها، ويرفع وجهها بيده ليرى عينيها:
لم يحدث شيء يستدعي البكاء، كما أني لستُ شبحًا كما ترين.
كان الجو مشحونًا بعواطف كثيرة مختلفة لم يقاومها؛ فهو لم يكبح رغباته من قبل، لم يفق من نشوة تلك المشاعر القوية والجديدة إلا على الدماء تلطخ وجهه والمكان وميري.
صرخ: ميري... ميري.
أخذ يهزها بعنف، ولكنها كانت ضعيفة جدًا.
على صوت ضحكة مرعبة وظهرت بعدها ليز، قالت:
أظنكَ بدأتَ احتفالك، وأنهيته مبكرًا.
قال بتوسل صادق: أعيديها للحياة، أرجوكِ ساعديني.
قالت بعين حادة باردة: بشرط.
أي شيء.
أن تكونا خادمين لي، وأن تعي أنكَ ليس لكَ اختيار.
قال بصوت منفعل: حسنًا، ما تريدين، لكن أسرعي.
وضعت ليز يدها على رقبة ميري، وقالت ببرود:
ما زال بها نبض، إنها لم تمت بعد.

ربطت الجرح الناتج عن أسنانه بإشارب، وأخذت تنظف المكان.
كانت الصدمة أكبر مما يستوعب الأمر، إنه صار كائنًا متوحشًا... لم يعد آدمي، نظر لليز، وقال بغضب:
أي حياة أعطيتها لي؟ تلك حياة حيوان مفترس لا يعرف إلا متعة الدم، لقد سلبتيني حياتي وكل ما أحبه.
قالت وهي تسقي ميري من زجاجة صغيرة:
إنك تبالغ يا عزيزي، إنها حياة رائعة.
بلا متَع.
بلا تعَب.
ولكن...
ليس هناك لكن.
وقامت وطوقت رقبته بذراعيها، وقالت وهي تقبله: لنبدأ الأحتفال.
قال وهو يبتعد: لا أريد ضحية أخرى.
قالت: لا، لقد شبعْت، وسوف أحضر لك كل يوم ضحية كما تسمّيها.
ضحكت ضحكة مجلجلة بلا روح، كان يحسها ميّتة هي الأخرى، إنه لا يريدها، ولكنه لا يقدر على الرفض؛ فقد سلبت إرادته.

الفصل السابع والعشرون

قال ألبرت وهو يقف: لقد أشرقَت الشمس، وسوف يأتي التجار لشراء محصولنا، هيا ندخل لنستريح قليلًا، وندع سوزان تتم البيعة، وسوف أكمل لك الحكاية فيما بعد.

قال: أنتَ لا تقابل أحدًا؟

قال ألبرت بابتسامة ماكرة: بالنهار فقط كما تعرف.

وهل لاحظ أحد ذلك.

نعم لاحظوا، ولكنهم يعتقدون أني أعاني من حساسية من الشمس.

قال وقد زال تحفظه: عذرٌ جيد.

قال ألبرت وهو يضع يده على كتفه: كما أنني أغير مكاني كل بضع سنين، وأحيانًا أغير اسمي أيضًا.

لماذا لا تبتعد عن الناس وتريح نفسك؟

قال ألبرت متألم له: ولماذا أحرم نفسي من الحياة؟

إنك ستحيا بحرية أكبر بعيدًا عن الناس.

يا ولدي لا توجد حياة بعيدًا عن الناس، أتعرف أمرًا قديمًا قبل بناء السجون كان من يقوم بجريمة ما يبعدوه عن الناس، ويتركوه في الصحراء وحيدًا، وكان ذلك عقابًا كافيًا.

لكن الحرية أهم.

ما قيمة الحرية إن لم تجد حولك ناس يحبونك، أتدري مثلًا حكاية الطيران تلك يمكنني أن أقوم بها بعيدًا عن الناس، ولكن الضحك... الكلام... الحب، لا وجود لهم بدون ناس نشاركهم.

قال وقد تذكر نوال: معك حق.

قال ألبرت مشفقًا عليه: يبدو أنك تحمل ألمًا كبيرًا.
قال: سأخبرك كل شيء، ولكن دعنا نستريح قليلًا.
قال ألبرت بحماس: لديّ مفاجأة لك.
وأمسك يده وأدخله سرداب، وبعد عنه قليلًا وفتح الضوء، وقال ضحاكًا:
إنني فقدت قوة بصري من كثرة استخدام الضوء، أو تدري شيئًا، إنني سعيد بذلك.
ضحك، وقال: إنك رائع يا جدي، ليتني عشت معك كل حياتي، لما كان عندي كل تلك المشاكل.
احتضنه ألبرت وطبطب على رأسه، ثم أبعده قليلًا، وقال وهو ينظر لعينيه:
لا تحمل همًّا بعد اليوم.
هز رأسه و ابتسم . أشار ألبرت إلى تابوتين، وقال:
إن هذا لي، وهذا كان لأبيك، تستطيع الاستلقاء فيه.
ولكني لديّ تابوت أبي بالفعل.
لا، إنه التابوت الخاص بأبي الكونت دركولا، لقد أخذه والدك عندما رحل.
لماذا لم يأخذ التابوت الخاص به؟
لأن تابوت دراكولا كان محميًا بتعويذة تحمي من بداخله، وهو كان محتاج لتلك الحماية.
كيف مات جدي إذًا إن كان تابوته محميًا؟
سوف تعرف ذلك عندما نصل إليه في الحكاية، ألا تريد معرفة الحكاية كاملة؟
قال بحماس: بلى، ولكني أتساءَل فقط.
قال ألبرت: ستجد في حكايتنا إجابة لكل تساؤلاتك، استرح الآن يا ولدي.
فتح تابوت أبيه واستلقى فيه، كان يشعر أنه قريب ؛فالتساؤلات التي تزاحمت بداخله طوال الفترة التي قضاها مع نوال سيجد لها حلولًا الآن، استرخَى في

هدوء.

مرّ بعض الوقت لم يعرف كم مقداره؛ فهو لأول مرة يجد نفسه مستسلمًا للاسترخاء دون محاولات.

شعر بألبرت يقوم من تابوته، فقال: إلى أين ذاهب؟

إلى المزرعة؛ لأطعم الحيوانات، وأطعم نفسى بعدهم.

هل يمكنني أن آتي معك؟

إنني كنت أستعد، وكنت سآخذك معي دون سؤالك، أم كنت سأتركك تموت عطشًا.

إننا لا نموت.

قال ألبرت ساخرًا بمرارة: ليتنا كنا.

استعد ألبرت وخرجا معًا.

كان لدى ألبرت حيوانات كثيرة يربيها في مزرعته؛ دواجن، وخيول، وأبقار، وأرانب، وغيرها. كان يقوم بتنظيف حظائرهم، ويضع الطعام والماء في الأماكن المخصصة لهما، ثم يحصيهم ويضع علامات في دفتره.

قال ألبرت: أي الحيوانات تفضل؟

قال هو في ارتباك وتردد: ألم تتغذّى على البشر من قبل؟

فزع ألبرت لهذا السؤال، لم يرد أن يظهر ذلك، ولكنه كان بادٍ عليه، حاول أن لا تخرج ثورته إلى لسانه؛ فهو لا يريد أن يفقده هو الآخر، قال في محاولة يائسة أن يبدو حواره طبيعيًا: لا.

لم يستطع ألبرت أن يتكلم أكثر من ذلك.

لاحظ ما أحدثه سؤاله من أثر في دهشة؛ فلم يكن يتخيل أن جده شخص مسالم هكذا، فمجرد ذكر قتل البشر أثار بداخله كل تلك المخاوف والاضطرابات.

قال؛ ليخفف ما أحدثه سؤاله من شرخ:

إنني عانيت كثيرًا إلى أن توصلت وحدي لفكرة التغذية على الحيوانات.

قال ألبرت بانفعال: وحدك! و أين كان جيمس؟

كان يتلاشى الصدام مع هذا السؤال، إن جده بريء تمامًا من دم أبيه وأمه، إنه حتى لا يعرف بموتهما.

قال ألبرت: ألم تخبرك روز بذلك؛ فإذا كان جيمس كثير الغياب لطيشه، فإن روز أكيد كانت موجودة لتعلمك.

قال لينهي هذا الموقف القاسي عليه: إنني لم أعرف عنهما إلا القليل؛ فقد قُتلا بعد مولدي بفترة قليلة فلم أرَهما.

كانت صدمة ألبرت أكبر مما يحتمل، وقال بصوتٍ مخنوق:

أكان كل انتظارى وهم؟ أخانني إحساسي لهذا الحد؟ لقد منعت نفسي أكثر من مرة من الانتحار لأجله، لقد احتملتُ كل تلك السنين بعده على أمل اللقاء.

خرج صوت مرعب لوحش جريح نظر له، وقال بعينين قاسيتين:

من الذي فعل ذلك؟

قال: إنني جئت إليك؛ لتساعدني على الانتقام لأبي ولنفسي ولحبيبتي.

هدأت ملامح ألبرت، وقال: حبيبتك.

نعم.

قال ألبرت وقد لانت ملامحه، وعلا وجهه ابتسامة صغيرة: ألك حبيبة حقًا؟

نعم، وماذا في ذلك؟

قال ألبرت:

فيه كثير؛ أنك لم تترك نفسك للموت، لقد قاومته... أنك تحب، لم يستطيعوا أن يسلبوني حفيدي كما سلبوني ابني العزيز.

احتضنه، وقال في تأثر:

لم يكذب حدسي، ولكني أسأت فهمه، لقد كنت أنتظر عودة ابني، وعاد لي أجمل ما فيه.

قال ليخرج ألبرت من حالة الحزن: ألن تختار لي الفطور.

قال ألبرت، وقد تحمس للمهمة:

لو كنت تحب نبدأ وجبتنا بالأرانب، ثم نرى إن كان سيجذبك شيء آخر.

مرحا كثيرًا معًا وهما يصطادان الأرانب، فقد اختارها ألبرت؛ لأنها الأكثر تسلية في صيدها؛ فهي صغيرة وسريعة، ضحكا كثيرًا وزال عنهما ما يحملان من همٍّ للحظات.

الفصل الثامن والعشرون

عاد للبيت هو وألبرت، قال ألبرت:
أتريد معرفة باقي الحكاية، أم تحكي لي أنت ما حدث معك؟
قال: لا، بل أكمل أنت.
اعتدل ألبرت في جلسته، وقال: لقد عاش دراكولا وميري تحت رحمة ليز، كانا يعتقدان أن الأمور ستتحسن مع الوقت، وأن ليز ستتركهما بعد أن تملّ، ولكن ذلك لم يحدث.
كانت ليز تلهو بميري، وتختبر عليها تعاويذها؛ فمرة تحولها فأر، وأخرى تجمدها، وأحيانًا تعلقها في الهواء.
تملّك ميري الخوف، ولم يعد حب دراكولا ما يشغلها؛ بل ليز، عرفَت ميري أن ما يميز لي ويجعلها تسيطر عليهما هو السحر، وقد كانت ميري صغيرة السن والحجم، كانت تبدو شديدة البراءة لدرجة لا تدعو للحيطة أمامها، واستغلت هي براءة مظهرها وكل ما لديها من ذكاء؛ لتخرج من هذه العبودية.
كانت ليز تحضر لدراكولا كل يوم حسناء إذا لم يفعل هو؛ فعرف أنه لا مفر، واستسلم لحياته الجديدة، ونسي كل تساؤلاته، أو تجاهلها أنه أبدي... قوي، وهذا يكفي.
أما ليز فهي لم تعد تخشى تمردهما عليها؛ فقد اعتادا الدور الذى حددته لهما، لقد كانت شديدة السعادة والزهو؛ فقد صنعت لنفسها حبيبًا وخادمة وللأبد.
جلست ليز ودراكولا، وقالت ليز بنبرة حادة أمرة: ميري.
قالت ميري بصوت مرتعش: أمرك سيدتي.
قالت ليز: أحضري لي كأسًا.
قالت ميري: أمركِ سيدتي.

قال دراكولا: إن ميري تغيرت كثيرًا، يجب أن تفتخرى بنفسك؛ فقد قتلتي بداخلها أي رغبة عدا رغبة البقاء.

قالت ليز وهي تمسك الكأس من ميري، وتشير إليها بطرف يدها بالانصراف:

إنها أهم غريزة لدى أي كائن.

أكملت بلهجة الخبيرة التي تلقنه درسًا:

اسلب أي شيء تريد، وأعطي الحياة؛ يكونوا لك شاكرين.

قال بألم لم يستطع إخفاءه: نعم.

قالت ليز، وقد علمَت فيما يفكر: إنك لا تحتاج لأحد ما دُمتُ أنا معك.

قال بكذبٍ أتقنه: معكِ حق، فأنتِ كل ما أريده.

وضمها إليه وقبّلها، على الرغم من كل ما تملكه من مهارات وقدرات لم تعرف يومًا أنه يكذب، إنها لا تميّز الصدق من الكذب، وهذه كانت نقطة ضعفها الوحيدة.

خرجت ليز ودراكولا إلى حفلٍ بعيدًا عن بلدتهما، فقد هاجر أغلبها؛ لتفشي الأوبئة التي تقتل الناس دون أن يعرفوا السبب، تفرقا حتى يجد ضحيته، وتجد هي تسليتها.

سار يتفحص الحسناوات، لم يعد يرى جمالهن بعينيه، وإنما بأسنانه، صار يعرف مقدار الدماء في كل واحدة، وصارت صفات الجمال كلها -التي كانت تملئ فكره في السابق، واحتار كثيرًا في وصفها- اختزلت في صفة واحدة "شهية".

لاحظ وقوف فتاة وحيدة بعيدًا عن زحام الحفل تراقب الحفل، فكر أنها صيد سهل؛ فهي بعيدة عن الحفل بالقدر الكافي لألّا يراه أحد وهو يأخذها.

اقترب منها، كان لها رائحة مميزة لم يصادفها من قبل، نظر لها باندهاش محدثًا نفسه: غريبة؛ بالرغم من بساطة مظهرها لها رائحة مميزة.

كان قد سرح وهو ينظر إليها فضحكت، وقالت: هل تعاني خطبًا ما؟

قال بارتباك؛ فهو لم يلاحظ ما فعله: لا، ولكني أتعجب من أمرك.
قالت بدهشة: وماذا فيّ يدعو للعجب؟
قال بدون تحفظ؛ فلا داعي ليخفي شيئًا؛ فهي ستموت بعد ساعات، وينتهي معها كل ما قال، فما الداعي للحيطة معها:
إنكِ تبدين بسيطة، ولكن بالرغم من ذلك لكِ رائحة مميزة.
قالت في غضب؛ فهي لم تفهم تمامًا ما يرمى إليه:
أتظن أني سرقتُ العطر الخاص بي؟
سكتت قليلًا وأكملت: إنكَ مجنون.
ضحك، وقال وهو يقبّل يدها: لم أقصد العطر، وإنما ما قصدته هو رائحتَكِ أنت.
قالت وعلامات الدهشة لازالت بادية عليها: لا أفهم ما تقول؛ فليس للناس روائح تميزهم، إنما هم يختارون العطر الذى يتميزون به.
معكَ حق، ولكن كما لكل منا ملامحه فلكل منا رائحته.
قالت بابتسامة ساخرة: أفرض أني أتفق معك، وأنني ككل البشر لي رائحتي الخاصة، فما هي؟
اقترب منها فبعدت عنه، وقالت: يا هذا.
قال ويدها في صدره؛ لتبعده عنها: اسمي دراكولا... الكونت دراكولا.
حسنًا، وماذا كنتَ تنوي أن تفعل؟
لا شيء، كنت سأدقق في رائحتك؛ لأعرف كيف أوصفها لك.
قالت وهي تغادر: شكرًا، لا داعي.
أمسك يدها؛ ليمنعها من الرحيل، وقال:
فعلًا لا داعي؛ فأنا أميزها من مكاني، هلّا جلستِ لأصفها لك.
جلست، وقالت: بسرعة، فيجب أن أنصرف.

قال وهو في حالة نشوة بر ائحتها:

إنها ر ائحة الحياة، إنها كالربيع؛ منعشة... صافية... وبريئة.

اتسعت عيناها، واضطربت ضربات قلبها، ولم تدري ماذا تفعل؟ أرادت أن تغادر سريعًا كما نوت أن تفعل قبل أن يتكلم، ولكنها الآن تشعر أنها نسيَت ما نَوَته، وما يمكن أن تفعله؛ فجلست ولم تتكلم.

أفاق هو من نشوته على عينيها، كانت تلمعان ببريق قد نسيَه؛ فقد تلاشى من عيني ميري من زمن طويل، نسي ما كان سيفعله بعد ذلك، ولم يشعر بشيء إلا بتردد كلمة لا... لا... بداخله، لا يجب أن يستسلم لشهوته ويقتلها؛ فهي أروع من أن تموت بتلك البساطة.

قال: يجب أن تنصرفي كما أخبرتيني.

احمر وجهها خجلًا؛ فكانت تظنه يريدها أن تبقى، هزت رأسها مو افقة، وقالت: هل سأراكَ ثانية؟

ربما لا؛ فأنا كثير السفر.

أما أنا فلا، ستجدني كل يوم عند هذا الجسر لو أردتَ رؤيتي.

بعد الغروب؟

ابتسمت، وقالت: هذا أفضل.

انصرفت لا تدري أتؤنب نفسها على هذا التهور الغير مضمون العو اقب، أم تهئ نفسها على تلك الجرأة التى منحتها أمل لقاءه ثانيًا، كانت سعادتها أكبر؛ لذا لم تدم حيرتها طويلًا.

عاد للحفل، لم تلاحظ ليز اختفاءه؛ فقد كانت مشغولة مع شخص آخر، أشارت لدراكولا بطرف عينها بأنها ستغادر الحفل مع هذا الغريب.

فكر لثوانٍ؛ لمَ لا يقتل عشيق ليز؟ إنها فكرة رائعة؛ فلماذا تُصرّ ليز على أن يكون الضحية امرأة؟ وما خطب الرجال؟

ضحك بمكر؛ فهو يدري أن ذلك سيفسد مزاج ليز، وهو يحب أن يجد شيئًا يزعجها به.

خرج خلفهما، وتحول إلى خفاش؛ ليتعقبهما.

دخلت ليز قصرًا كبيرًا كان الخدم في كل ركن، كان وجهها يشع تألقًا وزهوًا بهذا الصيد الثمين، فلا تريد سوى إثبات تفوقها لنفسها بأنها أجمل النساء.

دخلت معه جناحًا ملكيًا لا شك أنه ذو مكانة رفيعة، تأملها دراكولا من النافذة، وهو واقف في الظلام على هيئة خفاش.

كانت ملامحها تتغير؛ فكانت تشعر بأحاسيس كثيرة قد سلبتها منه لتبقيه بجانبها، ثم تذهب هي على حريتها إلى أي مكان.

لم يكن إحساسًا بالغيرة؛ فهو لم يحبها يومًا، وإنما هو الحقد ما أدخله عليهما، وجعله ينقضّ على عشيقها ويغرز أسنانه في رقبته، أخذت تدفعه لكنها لم تستطع؛ فنشوته أكبر من أي وقت مضى؛ فهي ليست نشوة الدم فقط، وإنما نشوة الانتقام، لقد وجد وسيلة تمنحه ولو قدر قليل من التشفي في ليز.

جلست تحدق فيه بغضب، فقد أنهى كل ما في الرجل من دماء حتى لم يتبقّ ما يسيل منه.

جلس ومسح أسنانه بلسانه، وعلى وجهه ابتسامة واسعة، وقال:

أتريدين أن نحتفل كالعادة؟ أم لم يعد لديك الرغبة في ذلك؟

قالت بغضب: يا لكَ من أحمق! هيا لنغادر قبل أن يعلموا بأمرنا، لن نستطيع الظهور في الحفلات ثانية، لقد حبستنا.

قال بصوت به الكثير من التشفي:

أنتِ لن تظهري، أما أنا فيمكنني أن أكمل خطتنا كما رسمتِ مع إضافة بعض التعديلات.

وما هي تلك التعديلات؟

إن الرجال لديهم دماء أكثر، ولا أشفق عليهم؛ فأستمتع أكثر؛ فأظن أنها تجربة مفيدة.

قالت وقد شعرت برغبته في التمرد: غبي.

قبّلها، وقال: لقد أجبرتني على ذلك.

ظنّت أنه فعل ذلك بدافع الغيرة عليها فهدأ غضبها، وقالت:

هيا بنا لنعود إلى قلعتنا، ونحدد ماذا سنفعل؟

حملها وعاد بها طائرًا إلى القلعة، كان يبدو عليه السعادة بصورة تعجّبت لها ميري، ولكن لم تسفر عنها وكذلك ليز، ولكنها ظنته قد استسلم لحبها، ونسي كل شيء آخر؛ فكانت سعيدة هي الأخرى، وحدها ميري لم تتغير، كانت تستعد كل لحظة بكل اجتهاد حتى تحين اللحظة الحاسمة.

قالت ليز لميري:

هيا لتساعديني لإعداد بعض التراكيب حتى أقوم بتعويذة تغير شكلي؛ فقد ورطني في جريمة قتل.

ضحك وضحكت معه، ولم تدري أنه كان سعيدًا فقط لتوريطها.

الفصل التاسع والعشرون

-"وهل نجح في إبعادها عن حياته بتلك الطريقة؟"

قالها لألبرت معقبًا على سرده لحكاية دراكولا وليز.

قال ألبرت: لبعض الوقت فقط، حتى أجادت وصفة التعويذة التى تغير الشكل، وعادت للخروج معه مرة ثانية، ولكن في هذه الأثناء حدث الكثير.

قال في لهفة: ماذا حدث؟

قال ألبرت: كان دراكولا لا زال يذكر ذلك البريق الصافي في عين تلك الفتاة التى قابلها في الحفل، تعجب من عدم سؤاله لها عن اسمها، أإلى هذا الحد صارت الناس عنده أشياء لا تحتاج لأسماء؟ قرر أن يراها؛ حيث أوضحت له عند الجسر بعد الغروب كما اتفقا.

بحث أولًا عن ضحية حتى لا يضعف أمامها ويفقدها مثلما فقدَ ميري من قبل؛ فميري حبيبته قد ماتت في تلك الليل المشئومة، والتى توجد الآن هي صورة باهتة لها، إنها صارت تتبع ليز حتى أصبحت نسخة منها؛ فقد صار يرى نفس القسوة في عينيها.

وجد الفتاة جالسة تحت شجرة بقرب الجسر، كانت تريد التخفي قدر الإمكان، ولكنها تعود لتظهر نفسها حتى يراها حين يأتي، كانت مترددة بين البقاء والمغادرة حين رأته أتى من بعيد. كانت تبدو طفلة بالنسبة لذلك الزمن الذي يبدو بعيدًا لكثرة ما حدث فيه؛ فقد صار شخصًا مختلفًا وإن لم يبدو عليه.

استقبلته بابتسامة خجولة، قال قبل أن يجلس:

إنكِ لم تخبريني اسمكِ بالأمس، ولم تخبريني لمَ كنتِ تقفين بعيدًا عن الحفل؟

ابتسمَت، فقد أخذت الكثير من وقته في التفكير فيها، فقالت:

-اسمي سارة.

ولماذا كنتِ بعيدة عن الحفل؟
لأني لا أحب الزحام.
قولي لي الحقيقة.
ضحكت، وقالت: حسنًا، إن الثوب الذى كنت أرتديه كان قديمًا، وقد رأيت الحفل بالأمس؛ فلم أرد أن أحرج نفسي، إنني من عائلة غنية، ولكن..
سكتت، وقد بدا عليها الحزن، فقال: ولكن ماذا؟
-أبي كان متهورًا بعض الشيء؛ فقد قام ببعض الصفقات الفاشلة؛ مما أدى لتراكم الديون عليه، واضطررتُ أنا وأمي أن نضحي بترف العيش، ولكن أمي تريد أن تزوجني من نفس المستوى الذى عشنا فيها، ولا تعي أن وضعنا الآن تغير.
إنكِ جميلة جدًا، وما كان ينبغي لكِ أن تهتمي بأمر الثوب، كان يجب عليك أن تخرجي للحفل، وتبهري الجميع بجمالك.
قالت وهي تضحك: أنت نفسك بالأمس لم ترى مني سوى تواضع مظهري، ووصفتني بالبسيطة.
قال وهو يشاركها الضحك: غبي.
علا صوتُ ضحكها، كان عذبا سرح فيه، فقالت: إنكَ تسرح كثيرًا.
أنتِ السبب.
أنا! لمَ؟
إنكِ... لا أجد وصفًا مناسبًا لما أحسه وأنا معك؛ فأنا أحسّك كالربيع الذى حرمت منه، فضحكتُك الصافية لم أعد أسمعها في العالم الزائف الذي أحياه.
ظهر الألم عليه، لمست يده في حنان، وقالت: لا عليكَ، كل شيء يمكن أن يتحسّن لو أردت.

-كيف؟ إنكِ لا تعرفين شيئًا.
-أخبرني إذًا.
-لا أستطيع.
-حسنًا كما تشاء، ولكني عند قولي، كل شيء يمكن أن يتغير لو عرفنا ما هو الشيء الذى نريد تغيره.
-لما جئتِ اليوم؟
-لأنى أردتُ ذلك، و أنت؟
-و أنا أيضًا.
أفاق من تلك الراحة الغريبة التي لم يشعر بها من قبل، كان شعورًا غريبًا، ليس رغبة ولا حبًا، ولكنه شعور يجذبه لأن يسند رأسه على صدرها، وينسى ليز وميري والقلعة والدماء، ولكنه لا يستطيع.
قال: سوف أنصرف الآن، هل سأراكِ غدًا؟
نعم.
تأملها قليلًا وكأنه يريد أن يحتفظ بصورة لها قبل أن يتركها، وقال في عجل؛ ليخرج نفسه من هذه الحالة قبل أن تفاجئَه الشمس: إلى الغد إذًا.
عاد للقلعة، كان سعيدًا حتى وهو في أحضان ليز، فكر أن ليز استولت عليه بحيلة فلمَ لا يوقعها بحيلة أخرى؟ ولكن من سيساعده؛ فميري لم تعد تحبه، ونظر إلى ميري وهي جالسة بعيدًا في ركنها الذي حددته لها ليز، وجدها ترمي ليز بنظرة حقد.فقال لنفسه: إن لم يعد يجمعنا الحب فليجمعنا الحقد.
وقرر أن يتفق مع ميري على ما يمكنهم فعله للتخلص من سيطرة ليز عليهما.
ضحكت ليز، وهى ترتدي ملابسها، وقالت: إنكَ صرتَ مختلفًا منذ بدأت تتغذى على الرجال.
قال، وقد اقترب منها وأخذ يداعب شعرها: صرتُ أقدرُ جمالكِ أكثر.

قالت ليز، وهي تبتعد عنه في دلال: لديّ شغل كثير، أنسيت ما فعلت؟
قال وهو يبتسم: لا، ولكني أحبك و أنتِ هنا أكثر مما تكوني بالخارج.
أتريد حبسي؟
هزته الكلمة، ولكنه لم يتكلم، وضمها إليه بقوة حتى لا ترى في عينيه صدى تلك الكلمة القاتلة.
قالت: إنك تدلّلني كثيرًا، لقد صرتَ عاطفيًا جدًا، لو لم أوقف قلبك بنفسي لقلتُ أن لديك قلبًا مرهفًا.
يالَسماجة الكلمات، إنها بشعة حتى في غزلها، آه كيف تنتهي تلك اللعنة، وتخرج من حياتي؟
لم يعد قادرًا على الكذب أكثر، فاستلقى على أريكته، وقال دون وعي: ميري.
قالت ليز في دهشة: لمَ تنادي ميري؟
أفاق على سؤالها؛ فقد شعر بضرورة بداية التفكير في وسيلة للخلاص، ونسي أن الوقت غير مناسب، قال :لا شيء، كنت سأطلب منها أن تعدّ لكِ الحمام.
قالت ليز بحدة: هذا ليس من شأنك، إن ميري لي وحدي، أنا التي أطلب منها كما أنك لي، أم تراك اشتقتَ لها مع عودة إحساسك بالجمال.
لا تبالغي، وإن كان كلامي مع ميري يضايقك فلن أفعل، لا تغضبي وتفسدى تلك اللحظة الرائعة.
حسنًا، إنني فقط أذكرّكَ بأني فعلت من أجلك أكثر مما في استطاعة كل النساءأن يفعلنه، كما أني لم أحرمك منهن؛ فأنت الذي فضّلت دماء الرجال على دماءِهن، ولكن ميري لا.
قال وهو يرفع كفيه عاليًا: أمرك.
تأكدَ من صدق إحساسه أنه وحده لا يقدر على هزيمة ليز، ولكن هو وميري معًا يقدران؛ لذا فليز حريصة على التفريق بينهما، لكنها لن تر اقبهما للأبد.

الفصل الثلاثون

ظل دراكولا وسارة يتقابلان عند الجسر كل يوم، حتى جاء اليوم الذى أجادت فيه ليز تعويذتها لتغيير الشكل، قابل الخبر بتجهم ظنّته ليز غيرة عليها.

استعدت ليز للخروج مع دراكولا كما اعتادا، ولكنه قال:

لا أشعر برغبة في الخروج اليوم.

قالت ليز: لمَ؟

يبدو أني أكثرت من الدماء الفترة السابقة؛ فربما أحتاج لراحة يوم حتى تعود لي الرغبة فيه ثانية.

قالت ليزوهي تضحك: يبدو أن دماء الرجال ثقيلة عليك.

شاركها الضحك وقبلها، وقال حتى لا تشك فيه:

استمتعي بوقتك، ولكن ليس كثيرًا.

قالت بمرح: سأرى، وداعًا.

انصرفت ليز، ومشت ميري؛ فاستوقفها قائلًا:

إلى أين يا ميري؟ أريد أن أتحدث معكِ قليلًا.

قالت ميري دون أن تنظر له: فيمَ؟

قال: - في حالتنا هذه.

قالت في ألم:

وبعد أن نتحدث، ماذا سنفعل؟

قال -وقد أعطاه حبه لسارة قوة وأمل-: نخلّص نفسنا من هذه العبودية، إنكِ لا زالتِ شابة، وتستحقين أن تحي حياة جميلة، وأنا أريد أن أعيش مع من أحب.

سكت؛ فقد خشي أن يكون كلامه حرّك ذكرياتها معه، عرفت ما يفكر فيه؛

فقالت: لا تخشَ شيئًا، لم يعد هناك ما يؤلمني، تكلم.
إنها تسيطر علينا، ولكنكِ لم تلاحظي كيف غضبَت حين ناديتُ عليك.
ربما كانت تغار عليك.
لا، إنكِ تعرفين أنها تخشى من اتحادنا ضدها.
حسنًا، فلْنفترض أننا اتحدنا أنت بقواك الجديدة، و أنا بماذا؟
قال في تردد: لا أعرف، ولكنكِ تملكين شيئًا يخيفها.
جلسا صامتين، شعرت ميري بقوة عزيمته وصدق رغبته في التخلص من ليز؛ فقررت أن تشاركه سرها الصغير، وأن تستعين به في تنفيذ خطتها.
قالت ميري: اسمع، أنا لديّ خطة، ولكنها تحتاج منكَ قدرًا كبيرًا من الخداع والصبر.
قال في حماس: ما هي؟
عادت ليز سعيدة بحريتها، وجدت ميري نائمة في ركنها كما تركتها، ودراكولا جالس على أريكته يتأمل السقف.
قالت ليز: إنني استمتعتُ كثيرًا اليوم، تعرِف؛ ربما كان من الأفضل أن لا تخرج معي.
نظر لها مندهشًا، أتُراها عرفت شيئًا؟ قال في ارتباك: ألا تريديني بعد الآن؟
قالت بدلال: لا لم أقصد، ولكن غيرتَك تفسد عليّ سهرتي.
التقط أنفاسه؛ إنها لا تشك في الأمر، قال: وماذا أفعل أنا؟
قالت ببساطة: تذهب في عكس طريقي؛ فلا أريد التورط في مشاكل بسببك.
قال في توسل: لن أفعل ذلك ثانية، أعدك.
قالت بحزم: لا.
حسنًا. تنحى جانبًا مبتعدًا عنها، وبدا عليه الحزن؛ فقالت وهي تداعب شعره: ما الذي يحزنك الآن؟

لم أكن أدري أن نهايتي معكِ قريبة هكذا.

لمَ تقول ذلك؟

إنكِ لا تفكري فيّ.

إنني لا أفكر إلا بك.

حقًا!

قل لي ما الذي يشغلك، وسوف أجيبك عليه؛ فيبدو أنه موضوع أكبر من الغيرة.

إنكِ تريدين تركي بلا حماية؛ فمن يريد قتلي يمكنه ذلك بكل سهولة وأنت غائبة، إنكِ لم تعودي مهتمة بأمري كالسابق.

قالت وكأنها تهدهد طفلًا صغير:

أتخاف الابتعاد عني؟

أنتِ من فعل بي ذلك.

حسنًا، سوف أصنع لك شيئًا يحميكَ في البعد عني؛ حتى تعرف أني لم أكفّ عن حبك.

قال في سعادة: ماذا ستصنعين لحمايتي؟

سأصنع لك تابوتًا.

صدمته الكلمة، وقال في ذهول: تابوت!

ضحكت ضحكة مجلجلة، وقالت: سوف يكون محميًا بتعويذة تمنع أي أذًى أن يصله.

ولمَ لا تحميني أنا؟

إن التعاويذ لن تصلح معكَ؛ فأنت فعل شرير لا يمكن أن أتلو تعويذة من السحر الأبيض لحمايتك؛ لذا سأجلب تابوتًا من خشب نقي لم يلوثه شر، وأجعله محميًا بالتعويذة، ثم تبقى فيه، ولن يصيبك أذى.

ألم تجِدي شيئًا سوى التابوت؟
إنه مريح، ثم ماذا تخاف، إنك ميت بالفعل.
حسنًا، إنها فكرة جيدة، ولكن فلتصنعيه كبيرًا حتى تزوريني فيه.
لن يحدث، فأنا لن أدخل تابوت أبدًا.
قال وهو يبتسم: حسنًا ما تريدين، ولكن اصنعيه كبيرًا حتى أحتفظ فيه ببعض الأشياء العزيزة عليّ.
لأشياء أم لشيء آخر.
ومن ستأتي معي إلى هنا!
حسنًا، سأفعل، دعني أستريح الآن؛ فاليوم كان طويلًا.
قال بابتسامة واسعة: تصبحين على خير.
بادلته الابتسام. كانت تحبه سعيدًا على عكس ميري؛ فكلما بدت ميري أكثر بؤسًا كلما زادت هى رضًا عنها .
خرج دراكولا في الغروب للقاء سارة، كانت قد مرّ أسبوع وهما يتقابلان كل ليلة، حتى صارا لا يستطيعان البعد أكثر عن بعضهما، كانت علاقتهما برغم براءتها أقوى من أي علاقة أخرى في حياته، ربما كان التوقيت ما جعل منها حب حياته الذي يجب أن يواجه كل شيء من أجله، وجعلها أغلى عنده من نفسه ،كانت جميلة، ولكن ذلك لم يكن سببًا كافيًا؛ ليفعل به كل هذا، كان يتساءل عن سر هذا الإحساس معها؛ فقالت ببراءة وثقة: إنه قدر.
قال وعلى وجهه ابتسامة كانت ساخرة، ثم انكمشت لصدق إيمانها بذلك:
أحقًا تعتبرين حبنا قدرًا؟
قالت بنفس الثقة البريئة: نعم، إنه أروع قدر.
حتى لو وصلك للهلاك.
سأموت و أنا أحبك، أليس هذا أفضل من أن أحيا ولا أحب؟

"يالَبراءتها، ما الذي فعلَت بهذا الملاك الجميل، إن ليز لو عرفَت أمرنا لقتلتنا".
سرح في أفكاره، فمالت على كتفه لتسند رأسها، وقالت:
تعرف ما أتمنى؟
ماذا تتمنين؟
أن أسمع تسارع دقات قلبك مثلما يحدث لي، أحيانًا أشك أنك لا تحبني؛ لذلك لا أسمع دقات قلبك، ولكن حتى لو لم تكن تفعل لا تخبرني.
قال وهو يقبل رأسها: إنني أحبك، ولكن قلبي لا يعمل.
قالت وهي تضحك: لا يعمل؟!
نعم، ينبغي أن تعرفي كل شيء عني.
انكمشت ضحكتها، وظهر عليها القلق؛ فقد كان جادًا في كلامه.
حكى لها كل ما حدث، وهى صامتة تمسح بين الحين والأخر دمعة سالت على خدها، كان يتألم مع كل حرف، ولكنها يجب أن تعرف؛ لتختار ما هي قصته، وقال:
سوف أنصرف، لا تتكلمي، غدًا سأنتظرك هنا كما اعتدنا، لو جئتِ سأعرف أنك تريدين البقاء معي، ولو لم تأتي فلن أبحث عنكِ، ولن أزعجكِ ثانية.
طار قبل أن تجيبه، وتركها تبكي.

الفصل الحادى والثلاثون

قال في لهفة: أخبرنى كيف قتل ليز؟

قال ألبرت: لمَ لا تخبرنى أنت بالذي تريد قتله، ولماذا؟

قال في ارتباك: حسنًا، فقد مضى كثير من الوقت، و أنا خائف على نوال أن يصيبها مكروه و أنا بعيد.

حبيبتك اسمها نوال؟ إنه اسم غريب.

إنها حكاية طويلة.

أين هي؟

إنها في القلعة، وقد وضعتها في تابوت جدي.

لا تخشَ شيئًا، إذاً فتابوت جدك قد حمته ليز بتعويذة تمنع الشر عن من به.

يجب أن أذهب، و أنت معي؛ لإنقاذها.

هل تعرف كيف نفعل ذلك؟

لا، ولكني أظن أن في حكاية جدي الحل.

سوزان...

جاءت سوزان، وقالت: نعم ألبرت.

قال ألبرت، وهو يشير إليه: هذا حفيدي جيمس.

قال: إن جيمس ليس اسمي.

قال ألبرت: وما اسمك؟

قال في ارتباك: ليس لي اسم.

قال ألبرت وسوزان في نفس الوقت: ماذا؟

قالت سوزان: كيف سمحتَ باستمرار هذا العبث طوال الوقت؟

قال ألبرت: لم أكن أعلم بوجوده حتى أتى.

قال: إن الموضوع طويل، سأقصه عليكما في الطريق.

قال ألبرت لسوزان: أعدّي ما يلزمكِ في الرحلة، وهيا سنذهب معه.
قالت سوزان: حسنًا.
قبلته على خده في حنان، وذهبت؛ لتعد مستلزمات الرحلة.
قال: ألن تخبرني ما حدث مع سارة؟
قال ألبرت: ذهب دراكولا في معادهما الدائم، ولكنه لم يجدها، جلس وقد هده اليأس؛ فليس هناك مفر من حياته تلك.
شعر بحركة خفيفة على أوراق الشجر الذابلة، فاسترق الحواس؛ ليعرف ما يحدث، وصلت إليه رائحة جميلة يعرفها جيدًا، صرخ مناديًا:
سارة... سارة.
سمعته ففرّت من ضعفها، وليس منه، وصل لها؛ فقد كانت سرعته أضعاف سرعة البشر، أوقفها بيديه، كانت أنفاسها تتلاحق بسرعة، فقال لها في ألم:
أخائفة مني يا سارة؟
قالت سارة بسرعة: لا... لا.
بكت فضمها إليه، وقالت: لا أدري إن كان ما يحدث لي نعمة أم نقمة.
إنى لم أعد أفكر في ذلك؛ فكل ما يشغل تفكيري كيف أنهي هذا الأمر.
لم أقصد طبيعتك، و إنما قصدتُ إحساسي بك.
وهذا أيضًا لم يعد يشغلني.
هل يمكنكَ أن تبني لنا بيتًا بعيدًا عن أهلي وعن صديقتك، ونصنع حوله مزرعة نأكل منها، ونعيش بعيدًا عن كل المشاكل؟
إن مشاكلي لا تُحلّ هكذا، بل يجب أن تُقتلع من جذورها.
بدا عليها الأسى، فقال: ولكن حلّكِ رائع للجزء الخاص بك، سأبني ما أردتِ، ولكن أخبريني كيف؟
قالت وهي ترفع كتفيها: وكيف لي أن أعرف؟

ضحكا، وقال: حسنًا، سأبنيه، ولكن لا أريد أن تكون توقعاتكِ عالية.
سيسعدني حتى لو كوخ.
فلنبدأ الآن.
طار بها بعيدًا عن البلدة بداخل الغابة، واختار لها أفضل مكان، وأجلسها وأخذ يقطع الأشجار، وتوقف وتردد قليلًا، ثم قال: ينبغي أن أحضر بعض الآلات وأدوات البناء.
قالت في خوف: لا تتركني هنا وحدي.
حسنًا سأعيدك، ونعود غدًا لبناء بيتنا.
ابتسمت، وقالت: بل حلمنا.
استمرا يتقابلان حتى أتما بناء البيت، وأحاطه بسور، سألته سارة عن موعد زواجهما. لم يشأ أن يخذلها، ولكنه كان يشعر بثقل الفكرة عليه؛ فقد كانت كلمات ليز له "أنتَ فعلًا شرير" تتردد بداخله فتشل حركته؛ كيف يقف أمام سارة، ويشهد الله على زواجهما؟ كيف يجرؤ على ذكر الله وهو شر؟ كان ينبغي عليه أن يصرّ على تطهير نفسه أولًا مما لحق بها من شر، ولكن سارة لا تبالي بكل هذا؛ فهي ترى أن الحب كافٍ؛ ليطهره من كل شر.
قال في شوق لمعرفة إن كان يمكنه الزواج بنوال هو الآخر: وهل تزوجا؟
قال ألبرت، وقد عرف ما يفكر فيه:
نعم، كان الأمر أبسط مما تخيل، كما أن تخليه عن قتل البشر كان بمثابة نعمة؛ فزاد النور في حياته، لقد شعر أنه صار نقيًا، كل يوم يمر عليه مع سارة يزيد ذلك الإحساس بداخله.
قال بأسى: ولكنه لا يستطيع أن يعيش هكذا دائمًا، فالشر سيلاحقه إذا لم يتخلص منه.

قال ألبرت:نعم، فعلى الرغم من انفصال حياة دراكولا وليز الذي حدث بالتدريج؛ فهما يخرجان في الليل كُلًا في طريق حسب رغبة ليز، ويقضيان جزءً من النهار مع بعضهما، إلا أن ليز شعرت ؛ فلم يكن الكذب بعد كل ما حدث له أمر سهل، شعرت ميري بذلك قبل أن يشعر هو به؛ فقررت أن تسرع في تنفيذ خطتها.

قالت سوزان: هيا، لقد تجهّزت.

نظر لها في لوم؛ فقد كان يريد معرفة ما هي الخطة، ابتسمت له، وقالت:

الشمس ستشرق عليكما؛ فأنا لا أبالي لأمرها، فلا تنظر لي هكذا.

ابتسم لها، وقال: نكمل في الطريق.

قال ألبرت: حسنًا، هيا بنا.

خرج ألبرت وراءهما دون أن يغلق الأبواب؛ تعجب لذلك، وقال:

لَم تغلق الأبواب يا جدى.

قال ألبرت: لأنه لا يوجد لديّ ما أخفيه أو أخاف عليه، كما أنه قد يأتي أصدقائي لزيارتي و أنا غائب، فلا ينبغي أن أغلق بابي في وجوههم.

طارا، حمل ألبرت سوزان، وحمل هو حقائبها، كانت كثيرة على غير المتوقع من سيدة مسنة.

وصلوا الغابة، ولكن الشمس قاربت على الشروق، فاختبئوا في كهف يعرفه هو، وقال لجده: أمامنا الآن وقت كافي لتكمل لي الحكاية .

قال ألبرت: كما أخبرتك من قبل، إن دخول الشك قلب ليز جعل ميري تفكر في أن تسرع في تنفيذ خطتها التى صارت لا تشمل إلا سلامتها وحدها.

لم تخبر دراكولا أنها وجدت الحل في إحدى الكتب.

استيقظَت، وقالت لليز: سوف أنظف المكان، هل لي بنقل الكتب والأدوات لمكان آخر، فأنا أحسَست أن أعصابك يلزمها الراحة؛ لذا فكرتُ أن أجمّل

المكان.
أومأت ليز موافقة، وهي تبتسم بفخر؛ فميري قد تعدّت مرحلة الخادمة، وصارت متفانية فيها، إنها سحَقَت كيانها وإحساسها بنفسها.
غادرت ليز القلعة طائرة يحملها غرورها قبل تعويذتها.
أخذت ميري تنفذ خطتها، وحملت كل الكتب والأدوات إلى مغارة بعيدة قد اكتشفتها، وأحبت العيش فيها؛ فقد تغيرت فعلًا، ولكن ليس كما تظن ليز بأن الأنا لديها تلاشت، بل العكس، إن الأنا لديها تضخمت حتى لم تعد ترى غيرها.
لاحظ دراكولا ما تفعله ميري، فقال: هل حان الوقت؟
أومأت ميري برأسها وهي تحمل الكتب وتخرج، انتظر عودتها، وقال:
ألن تخبريني ما هي الخطة؟
جلست ميري على بعض الكتب، وقالت: إنني قرأت كل تلك الكتب حتى التى لم تقرأها ليز؛ فهى تبحث عمّ تريد فقط.
وماذا وجدتِ؟
وجدتُ الحل الوحيد للخلاص من ليز؛ هو قتلها.
قال دراكولا في ارتباك: إنني لم أعد أقتل أحدًا، لقد صرت أتغذى على الحيوانات، وما تطلبينه قاسٍ علي، ألا يوجد حلٌ آخر؟
قالت ميري بعين جامدة: لا.
صمت قليلًا يفكر في سارة وولده الذي سيأتي إلى الدنيا بعد أيام قليلة، قال في تردد: لقد وعدتُ سارة.
ابتسمت في قسوة، وقالت: لو كانت المشكلة في قتل ليز فقط لقتلتها بكل سهولة، ولكن لا يمكنني ذلك، إنك الوحيد القادر على ذلك؛ فهذا ما يذكره الكتاب.

أكملت بنبرة أهدأ: كما أن ليز تشك في أمرك، وعمّا قليل ستعرف أمر سارة والطفل، وأعتقد أنها لن تتردد مثلك في قتلهما.

قال في يأس: حسنًا، كيف سأقوم بذلك؟

أشرق وجه ميري، وقالت في حماس: لا تشرب شيئًا اليوم، ولا تذهب لسارة أيضًا، و أنا سأعد عشاء رومانسيًا وشموعًا والعطور التي تحبها ليز، وسوف أضع لها مخدرًا خفيفًا في الطعام حتى لا تلاحظه ويفسد كل شيء، وسوف تأتي أنت وتغازلها، وتنقضّ عليها كما فعلَت معي، وينتهي الأمر.

ابتسمَت في خبث، وقالت:

مع فارق وحيد؛ أنني لن أعالجها، سأظل أنظر إليها حتى تنتهي.

و أنا؟

قالت في اضطراب حاولت إخفاءه: لا شيء، لن يحدث لك شيء.

ولكنه شعر بأن ميري تخفي عنه شيئًا؛ فقرر أن يحمل تابوته، ويعطيه لسارة لتحتمي فيه لو واجهها شر.

قالت ميري في انزعاج: إلى أين أنت ذاهب بالتابوت؟

قال في حزم: إلى بيتي.

قالت في غضب: ألم تسمع ما قلته؟

قال في تحدٍ أرعبها؛ فهو قادر على الفتك بها كما فعل سابقًا:

سمعته، وسوف أنفذه بشرط أن أرسل التابوت لسارة.

قالت في رعب حاولت إخفاءه: حسنًا.

وضع التابوت على الأرض، كان قد حكى لسارة عنه؛ فظنته قرر أن يعيش معها؛ فتعلقت في رقبته فرحة ببقائه معها، ولكنه قال: اسمعيني جيدًا ظلي هنا، و ابقي داخل هذا التابوت حتى أعود إليكِ، ولن يصيبكِ أنت ولا المولود سوء.

قالت سارة ببراءة: لمَ لا تترك الأمر إلى هنا وتبقَى معي؟

كنت أتمنى، ولكن لن تتركنا ليز نهنأ بالهدوء ولو للحظة بعد أن تعرف، ثقي بي، واختبئي هنا حتى أعود لك.

قالت سارة في حزم: لا لن أبقى هنا، خذني معك، وأعدكَ أن أبقى بداخل التابوت كما تريد، ولن أتدخل في شيء مهما حدث.

قال دراكولا: لا.

قالت سارة في عناد: حسنًا، وأنا لن أتركك تذهب وحدك بعد كل ما عرفته عنك.

قال بنبرة رقيقة: أخاف عليكِ أذى ليز.

قالت سارة: لن تشعر بي و أنا داخل التابوت، أعدك.

حملها هي والتابوت وعاد بهما إلى القلعة قبل أن تعود ليزفي ميعادها المعتاد.

وجدا ميري منهمكة في إعداد المكان، قالت ميري بغضب عندما رأتهما:

ما هذا؟! إنك ستفسد كل شيء بغبائك، إن كل ما عانيته كان من غبائك، ويبدو أنه ليس له نهاية حتى يدمرني تمامًا.

قالت سارة: اهدئي، إنني سأختبئ هنا بعيدًا عن كل ما تفعلون، ولن تشعروا بي، أعدكِ.

قالت ميري، ولا تزال غاضبة: اختبئي قبل أن تفاجئنا ليز.

أشارت لدراكولا، وأكملت: ضع التابوت خلف تلك الستائر بعيدًا.

وضع دراكولا سارة في التابوت، وعاد لميري؛ فأشارت له أن يجلس على أريكته كعادته؛ فجلس، أعطته ميري زجاجة صغيرة، وقالت:

أشرب هذه لتعطيك بعض اللون؛ حتى لا تعرف ليز أنك لم تشرب دماء اليوم فتخاف منك.

شربها وجلس، لم ينتظروا كثيرًا حتى حضرت ليز.

كانت سارة تسترق السمع، ولكنها كانت حريصة على ألا ترفع رأسها خارج التابوت؛ حتى لا تشعر بها ليز.

قالت ليز: تبدو متوردًا، يبدو أنكَ استمتعتَ بوقتك اليوم.

قال دراكولا: كثيرًا، و أنتِ؟

و أنا أيضًا، آه، رائحة الطعام شهية، من المؤسف أنك لا تأكل.

قال دراكولا بابتسامة وضع فيها كل ما أتقنه من كذب:

يكفيني أنكِ تستمتعين به.

قالت ليز، وهي تقبله: لقد عدت، ما الذي أزعجك في الأيام القليلة الماضية؟

كنت أراقبك كل يوم و أنتِ مع رجال غيري، وكان ذلك يزعجني كثيرًا، ولكني اليوم فكرت أن أعود لصيد النساء؛ فهو يشعرني أن ما تفعلينه هو للتسلية فقط مثلما أفعل أنا.

ضحكت ليز سعيدة؛ لأنّ كل ما كان يشغلها ليس له أساس؛ فهو لا يزال يحبها ويغير عليها.

أخذ يداعبها ويطعمها بيده، فكادت تطير زهوًا بنفسها، انتهت من تناول الطعام، وأشارت لميري لترفع المائدة، وجلسا في عناق، ثم أشارت له ميري بعينها؛ فغرس أسنانه في عنق ليز.

لم تقاومه كثيرًا؛ فلم تستوعب ما يحدث إلا بعد فوات الأوان، كانت تنظر إلى ميري مستنجدة، وهي واقفة تتأملها في سكون، ثم ابتسمت ميري لها ابتسامة عرفَت منها ليز كل الحقيقة أنها ميري.

ترك دراكولا ليز و ابتعد عنها، كانت عين ليز معلقة بميري التي جلست بجانبها، وقالت وهي تعيد شعر ليز إلى مكانه، وتملس عليه: أتريدين شيئًا سيدتى؟

فتحت ليز فمها في محاولة يائسة منها في استعطافها، فضحكت ميري، وقالت: آسفة لا أسمعك، ولكني سأبقى معكِ إلى النهاية.

شعر دراكولا بالاختناق، وأن توازنه يختل؛ جلس على الأريكة، وقال:
ميري، إنني أشعر بالتعب، أو اثقة أن المخدر لا يؤثر فيّ؟
قالت ميري: نعم وحده لا يؤثر، ولكن...
ضحكت ضحكة مجلجلة خلعت قلب سارة وجمدها الخوف.
قال دراكولا: ولكن ماذا؟ انطقي.
قالت ميري: لا تنفعل؛ فذلك لن يفيدك؛ فالسّم عبارة عن جزئين جزء شربته بإرادتك، والجزء الآخر كان في دماء ليز الذي شربته، أمامك دقائق لتعيشها، أتريد أن تعتذر عمّ ألحقته بي؟
قال في ضعف شديد: ميري، أنا لم أؤذيكِ بإرادتي، لقد كنت أحبك.
لقد قتلتني.
ولكنكِ لم تموتي.
ليتني مِتّ.
كلانا ضحية.
لا، أنا لم أعد ضحية.
قال متوسلًا: لا تؤذي سارة يا ميري.
قالت ميري: لقد ذكرتني، عليّ أن أسرع قبل أن تفوتك المشاهدة، ولكن لا أظنها تحبك كفاية؛ فهي لم تكلف نفسها الخروج للاطمئنان عليك.
عرف ما تخطط له، فصرخ بأقصى ما لديه: لا تخرجي يا سارة مهما حدث.
لم تكن سارة في التابوت برغبتها، ولكن التابوت هو الذي أغلق عليها لانتشار الشر حولها، حاولت أن تخرج ولكنها لم تستطع، ولكن ميري لم تكن تعلم ذلك؛ لذا حاولت أن تفتحه، ولكنها لم تستطع الاقتراب منه؛ فالتابوت كان حوله هالة من الطاقة تبعدها عنه، فقدت ميري الأمل في فتحه؛ فغادرت القلعة، وهي تصرخ مهددة سارة بأنها لن تتركها تهنأ مهما طال الزمن.

الفصل الثانى والثلاثون

-"هل مات؟"

قالها في فزع.

قال له ألبرت، وهو يربت على كتفه: نعم، ولكن سارة لم يصبْها مكروهًا، وولدتني في هذا اليوم، وقد أفادها التابوت كثيرًا؛ فقد كانت الولادة يسيرة، وكانت صحتي جيدة.

عرفت أمي قيمة التابوت؛ فظلت تضعني فيه حتى كبرت، وصرت أمشي؛ فصارت تتعقب كل خطو اتي، ربتنى في خوف قاتل من ميري؛ فقد كانت تحملني في كل مكان، وهى تزرع... وهي تعتني بالحيو انات، وفى يوم و أنا ألعب عضَضْتُ أرنبًا، وسال دمه وشربته، كنت صغيرًا جدًا وقتها، ولكني حينها عرفتُ من أكون.

كانت صدمة أمي لا توصف؛ فلم تكن تعرف أن لعنة أبي ستكمل معي، ولكنها كانت سيدة حكيمة وعاقلة؛ فعلمتني صيد الحيو انات، وأن أكبر لعنة يمكن أن تصيب الإنسان هي لعنة الروح، وقد نجحَت في تطهير روحي من أي نوازع للشر، وصرت كما ترى.

حين كبرتُ قابلت فتاة رقيقة، أحبَبْتُها، وأحبتها أمي وتزوجنا، و أنجبنا جيمس، وكانت سارة ترعانا جميعًا، ولكنها توفيت قبل أن ترى جيمس وهو يكبر ويصير شابًا.

كان جيمس حالمًا وخياليًا أكثر مني، لقد اكتشف قدرته على الطيران قبلي حتى.

ضحكا، فأكمل ألبرت: إنني أحب الأرض؛ فأنا مزارع.

قال: و أبي؟

قال ألبرت: لو لم يقابل صديقته تلك لظل مثلي.

ومن هي صديقته؟ أهي أمي؟

لا؛ روز، كانت فتاة رقيقة، إنه عاد إلينا ليتزوجها، وأعطيته يومها التابوت ليحميه، وأخبرني يومها أنه وجد قلعة أبي، و أنه سيعيش فيها، اعترضْتُ، ولكنه لم يستمع لي، كان هناك شيء ما يخطط له، ولا يريدني أن أعرفه، ليتني لم أتركه يذهب.

كيف تعرّف على تلك الصديقة التى غيرت حياته؟

كان ذلك قبل أن يقابل أمك بفترة طويلة، كان يخبرني بأن له صديقة، لم أكثر عليه الأسئلة؛ حتى لا أحرجه، كان يخرج معها، وفي إحدى الأيام عاد سعيدًا ويضحك، ويتحرك بصورة مبالغ فيها، ثم تحول ضحكه لنحيب، وبدأ يضرب نفسه، ويصرخ " قاتل... قاتل" ولم يردْ أن يريني وجهه، و ابتعد عني ورحل، وغاب فترة، ثم عاد إلينا ذات مساء يحمل روز كما أخبرتك، كانت سعيدة لأنها معه وسيتزوجا، ولكنها كانت تريد البقاء معي وعدم الذهاب للقلعة، ولكنه كان عنيدًا، ولم يستمع لأحد وذهب، ولم أرهُ ثانية.

غابت الشمس؛ فقال لألبرت: سأحكي لك ما أعرفه حتى نصل للقلعة.

حكى له كل ما يعرفه مما حكته له ميري، وكل ما حدث له إلى أن وصلا للقلعة، وهرول ليطمئن على نوال، وجدها كما هي، ضمها إليه بشوق، وعرفها على جده وسوزان بالرغم من حالتها، كان يشعر بقرب الحل؛ فالثلاثة التي أشارت لهم البوصلة ها هم في مكان واحد.

اقتربت سوزان من نوال، وقالت بابتسامة واسعة لألبرت: تبدو شرقية، انظر لونها الخمري الجميل، وشعرها الأسود الطويل، يا للعجب؛ ما الذي جاء بها إلى هنا؟!

قال: أنا الذي أحضرتها.

قالت سوزان، ولا زالت محتفظة بابتسامتها:

أتعرف أن الحب أكبر مظهر من مظاهر القدر؟

ضحك ألبرت، وقال: فى عائلتنا الحب هو قدرنا، نموت به ونحيا به؛ فهو الشيء الوحيد القادر على تخليصنا من اللعنة.

قالت سوزان وهي تقبل ألبرت: إنك أعقل من رأيت.

تعجب لهذا المنظر؛ فسوزان تبدو مسنة جدًا على ألبرت؛ فهو لم يتوقع أن يكون الحب هو ما يجمعهما.

لاحظ ألبرت حيرته، وقال:

إن سوزان أصغر مني، ولكنها راضية بهذه العلاقة غير المتكافئة.

ضحكت سوزان؛ فبدت أجمل في عينيه، فابتسم، وقال: أهو القدر؟

قالت سوزان: نعم، ولكنه أبسط لدينا مما كان عليه مع دراكولا ومعك وجيمس، إنه بسيط وجميل، تقابلنا وقررنا البقاء معًا إلى آخر العمر.

قال: تقصدي إلى الأبد.

قالت سوزان: إن عمري محدود؛ فلمَ أذكر الأبد؟ إننا سنكون سويًا إلى آخر عمري، أليس هذا أجمل شيء في الدنيا، لطالما تخيلت نفسي وأنا أموت بين يديه؟ أليست أروع موتة؟

قال ألبرت مداعبًا: يالكِ من قاسية وأنانية لا تفكرين إلا في نفسك.

قالت سوزان في حنان: إنني سعيدة من أجلك.

قال ألبرت: سعيدة بلعنتي.

قالت سوزان: إنكَ أقوى من أي لعنة.

ضحكت؛ لتخفف الألم في عينا ألبرت، وقالت لجيمس كما كانت تظن اسمه: هل فكرتَ أن تقبّلها، ربما تكون لعنتها كلعنة الأميرة النائمة.

ضحكت هو وألبرت، قبّل ألبرت رأسها حين رأى الغضب على وجهها بسبب سخريتهما منها، وحاول هو أن يتماسك ليبدو جادًا، وقال:

لا لم أفكر، إنها حكاية أطفال.

قالت سوزان في تحدٍ: و أنتما أيضًا.
استوقفته الفكرة، ربما كان ذلك حقيقيًا؛ فالسحر ومصاصي الدماء خرافة لدى البشر مثل تلك الحكاية؛ فاقترب في تردد من نوال، ورأقبته سوزان وقد اتسعت عيناها؛ فهي متأكدة أن كل الحكايات مهما كانت غريبة فهيحقيقية.
قبّل نوال في تردد، فقد كان غير متأكد مما تقوله سوزان؛ فهي حالمة جدًا، ولم يحدث شيء بالفعل، نظر إلى نوال، وقال:
ليتني كنت قادرًا على إنقاذك كما فعلتِ معي.
لمس وجهها بأطراف أصابعه، وقبّلها ثانية، ليس بسبب اللعنة، ولكن لشوقه إليها، أسند رأسه على كتفها، وتمنى لو يسمع صوتها مرة ثانية.
-"إن رأسكَ ثقيلة"
انتفض، ونظر إليها؛ فأكملت نوال: أين ذهبت ميري؟
ثم تلفتت حولها، فرأت ألبرت وسوزان؛ فقالت في اندهاش وهى تعتدل في جلستها، وقد احمر وجهها خجلًا: مَن هؤلاء؟
قال وهو يحتضنها: لقد عدتِ.
قالت باندهاش: و أين كنت؟
قال وهو يبتسم، ولو كان يملك دموعًا لسالت الآن: حتى أسئلتك المزعجة عادت معك.
ضربته بيدها في صدره؛ ليكف عن مضايقتها أمام الغرباء.
ضحك، وقال: هذا ألبرت جدي، وهذه سوزان حبيبته، جاءا؛ ليساعدانا في حل مشكلتنا.
تعجبت لفرق السن بين ألبرت وسوزان، ولكنها لم تعلق؛ فقد قال أن ألبرت جده، وهو يبدو في مثل سنه، فربما كان ذلك مرتبطا بما أخبرها عنه من خوارق.

قالت نوال: لقد وجدتَ الحل بالفعل، وكنت سأخبرك به بعد أن تكمل إفطارنا قبل أن تفاجئنا ميري.

قال وألبرت معًا: حقًا.

قالت نوال: نعم، ألم أخبرك أنني اخترعت دواءً سيغير مجرى التاريخ؟

لم يبدو عليه معرفته بما تقول؛ فأكملت: ذلك الاختراع الذي كانوا يريدون قتلي بسببه.

قال في ارتباك؛ فهو لم يكن ينتبه كثيرًا لما تقوله في مجال شغلها: نعم؟!

قالت نوال: حسنًا، إنني سأعد هذه التركيبة، ولكن بطريقة معاكسة؛ فبدلًا من أن تشفي من كل الأمراض تصنع مرضًا لا يُشفى منه، إنه تصرف غير أخلاقي، ولكنه أفضل من قتلها.

قال: تُرى سينجح؟

قالت نوال: لا أدري؛ فلم أجرب بعد كما أني أضفت عليه بعض التعديلات من كتاب ميري؛ فربما يُحدث تأثيرًا مختلفًا، إنني أريد الأشياء التي تدخل في التركيبة، إن كل شيء في ملاحظاتي، ألم تقرأها؟

قال: أكثر مما تتصورين.

قال ألبرت في اندهاش: إنكِ ذكية بطريقة مختلفة عن ذكاء النساء، لما لا تتركِ عقلكِ جانبًا وتفكرين بالحيلة كما تفعل النساء؟ تخيلي إنك بلا عقل، كيف كنتِ ستحلي هذه المشكلة؟

قالت نوال: ولكني لديّ عقل بالفعل؛ فلمَ أهدره؟

قال ألبرت: كنت أقترح فقط.

صمتت نوال قليلًا، وقالت: ربما نمزج بين الاثنين.

قال ألبرت: هذا أفضل.

فكرت نوال قليلًا، وقالت: هو يذهب ليخدع ميري بأنه تاب عن كل ما فعل، وعاد لها نادمًا.

قال: ولكن من سيساعدك؟

قالت نوال: ألبرت وسوزان وسرينا أتذكرها؟ فيجب أن نغادر القلعة حتى لا تشك ميري في الأمر، ولو سألتكَ عنى أخبرها أنكَ ألقيتني في النهر، أو أحرقت جثتي، المهم حاول أن تفهمها أنني لم يعد لي وجود.

قال ألبرت: ومتى يعود ليأخذ منا هذا الدواء؟

قالت نوال: يمكنه أن يزورنا في المساء؛ ليعرف التطورات.

قال ألبرت: ربما تشكّ ميري في أمره وتر اقبه.

قال هو: إنني أسرع من أي تعويذة يمكنها أن تقوم بها للّحاق بي.

قال ألبرت في شرود: ثانية واحدة.

بدا عليه الدهشة، فقالت سوزان في قلق: ما بكَ؟

قال ألبرت: إنني لم ألاحظ أن ساحرتكما اسمها ميري.

قالت نوال: وماذا في هذا؟

اندهش هو أيضًا، وقال لجده: أتقصد أنها هي؟ مستحيل!

قال ألبرت، وقد قست ملامحه: انسي يا نوال أمر دواءك هذا؛ فميري ستموت.

صرخت سوزان: لا ألبرت، لا يا حبيبي.

قال ألبرت: إنها قتلت أبي و ابني؛ فلن أتركها.

قال له: اهدأ؛ فإن الأمر يحتاج لحيلة كما قلت، وقتلها لن يحل المشكلة، ولن يعيد أحد للحياة.

قال ألبرت في مرارة: حسنًا.

ولكنه كان مقتنعًا أن شر ميري لا يمكن إيقافه إلا بقتلها.

الفصل الثالث والثلاثون

جلس الجميع في دائرة ترأسها نوال، ومعها دفاترها تشرح منها لهم ما دونته، تحتاج لأدوات معمل ومواد كيميائية، وقد أسندت هذا الدور لسرينا، لا تعرف كيف ستقنعها بذلك، ولكنها ستتصرف حين يحين الوقت، أما الأعشاب والنباتات المطلوبة سيحضرها هو وألبرت، أما سوزان فستتولى رعايتهم جميعًا، كانت ابتسامتها كفيلة أن تشعرهم بالأمان، كان لها عينان خضروان واسعتان كعيني طفل، كانت بالرغم من كبر سنها بريئة القلب، وهذا أضفى عليها جمالًا وسحرًا خاصًا.

ذهبت سوزان؛ لتؤجر منزلًا لهم حتى يبدأوا خطتهم، وذهب هو وألبرت؛ لإحضار الأعشاب والنباتات، وذهبت نوال لزيارة ودية لسرينا؛ لتمهد لما ستطلبه منها فيما بعد.

التقت سوزان ونوال عند أطراف المدينة على مشارف الغابة، وقفتا تنتظران رجالهما؛ ليأخذاهما إلى القلعة، جلستا تحت شجرة يتسامران لقطع الوقت.

قالت سوزان: إنه يحبك حبًا حقيقيًا؛ لذلك فكّت قبلته لعنتك.

احمر وجه نوال؛ فهي لا تذكر شيئًا بعد أن شربت من زجاجة ميري إلى أن وجدته ساند رأسه على كتفها.

قالت سوزان: لا داعي للخجل، إن الحب أجمل شيء في الدنيا.

قالت نوال: ألا تخافي أن يتركك ألبرت؟

قالت سوزان بابتسامة لطيفة: لمَ يفعل ذلك؟ إنك لازلتِ صغيرة، إن الحب لا علاقة له بالشكل الخارجي، إنه شيء أكبر من ذلك؛ فالحب هو السحر الحقيقي في ذلك العالم؛ فهو يظهر ويسلبنا دون تعاويذ أو مصل.

قالت نوال: إنكِ رائعة يا سوزان، كم هو محظوظ ألبرت بك.

قالت سوزان: وهو أيضًا محظوظ بك.
سكتت سوزان قليلًا، وقالت: لمَ لم تعطيه اسم، وتركتيه كل هذا الوقت بلا اسم؟
قالت نوال في ارتباك: لم أكن أنا الفاعلة، إنها ميري.
قالت سوزان: أعرف، ولكن لمَ لم تعطيه أنتِ اسمًا بدلًا مما سلبَتهُ منه ميري؟ قد أعطيه اسمًا لا يعجبه، كما أن الأسماء غير مهمة.
ألا يسعدك نداءه لكِ باسمك؟ ألا يضفي نطقه لاسمك عليه جمالًا؟
قالت نوال في حيرة: أعلم، ولكن...
لا داعي للكن، أمامك الكثير من الوقت لتفكري له في اسم يشبهه، وسوف يحبه ما دمتِ من سيناديه به.
ضحكت نوال، وقالت: حسنًا سأفعل بعد أن ينتهي الأمر.
أجتمعوا جميعا، وطار هو وألبرت. حمل كل منهما حبيبته، وطارا عائدين إلى القلعة، وجلسوا يناقشوا ما وصلوا إليه في الخطة، ومدى تقدمهم فيها.
قالت سوزان: إنني وجدتُ بيتًا رائعًا قريبًا من حي صديقتك سرينا، وسوف ننتقل إليه خلال أيام.
قال هو: عظيم، وأنا وألبرت أحضرنا قائمة الأعشاب والنباتات كلها، ولكن لديّ اقتراح.
قالت نوال: ما هو؟
قال: ألا ينبغي عندما أعود لميري أن يكون شكلي كما كان.
قالت نوال، وهي تتأمله: أعتقد ذلك؛ يجب أن يعود شعرك للوراء كما كان، وتشتري بذلة جديدة كل يوم كما كنت، وأظافرك تعود نظيفة ور ائحتك.
ضحكت، وقالت: لقد تدهورت حالتك معي فعلًا؛ فلها حق أن تغضب عليّ لما صرتَ عليه.

ضحك، وقال: إنها لا ترى منى إلا شكلي الخارجي؛ لذا لو أتقنا إعادة كل شيء كما كان لن تلاحظ ما تغير بداخلي.

قالت سوزان: حسنًا، سنبدأ بالأظافر، هيا تعالَ اجلس هنا حتى أبدأ العمل.

قال في اضطراب: ولكن ما فائدة ذلك؛ فأنا مضطر للصيد ثانية، وإلا...

قال ألبرت: لا تحمل همًّا؛ سأصطاد لي ولك، وأحضر لك الدماء في زجاجات، فلا تضطر ليهدلة هندامك، إنها طريقة رائعة كنت أقوم بها في أوقات الحصاد حين يكون لديّ الكثير من العمل، لن تجد فرقًا كبيرًا صدقني.

قال: حسنًا. وجلس لتهتم سوزان بأظافره، وكانت نوال تعطيها ملاحظات عمّ كانت عليه في السابق.

قالت نوال: ألم تفكر في الحجة التى ستزور ميري من أجلها؟

قال: بلى، سأخبرها أن ما معى من أموال قد نفذ، حينها ستساومني، ولن تشك في الأمر.

قالت نوال: حسنًا، إنها فكرة جيدة.

قال ألبرت: و أنا ماذا سأفعل؟

قالت نوال: ستكون مسئولًا عن غذائه كما قلت.

قال ألبرت في ضيق: إنني لم أعتد الراحة، أعطوني عملًا ما.

قالت سوزان: إنك ستدهن البيت الجديد، وتصلح ما يريد الإصلاح؛ فالمبلغ الذي أعطيتموني إياه لم يكفي لأشتري بيتًا أفضل.

قال ألبرت في سرور: هذا أفضل، إنك رائعة يا سوزان حقًا، ومتى سننتقل؟

قالت سوزان: خلال أيام، لا تقلق.

قالت نوال وهي تكتب ما أضافوه على الخطة في دفترها حتى لا تنسى شيئًا: حسنًا، هذا أفضل، إننا فريق رائع.

ابتسم الجميع، وجلسوا يستمعون لحكايات ألبرت الشيقة.

الفصل الرابع والثلاثون

غادروا القلعة، وتركوه يعد نفسه للذهاب إلى ميري، ويحاول أن يصفي ذهنه؛ فألبرت سيكون مع نوال؛ ليحميها من أي سوء.

دخل المغارة بخطى متكاسلة يقدم رجلًا ويؤخر الأخرى .

تفاجأت ميري برؤيته، لم تكن تظن أنه سيأتي بهذه السرعة، ظنته سيحتاج عدة أعوام لينسى ويعود إليها.

قال في تردد: مرحبًا ميري.

قالت ميري بابتسامة واسعة: مرحبًا بك.

حاول أن يتكلم متحاشيًا قدر الإمكان التقاء عينيهما؛ فهو لا يعرف هل يمكنه الكذب أمامها بعد كل ما حدث، ولكنها ظنته خجلًا مما فعل ومن حماقته؛ لذا اقتربت منه، وضمته إليها مرحبة بعودته، فقد عاد إليها؛ فليس له مكان آخر يذهب إليه.

قال حتى لا يفتضح أمره لو ترك لها وقتًا لتفكر: لقد نفذت مني النقود.

قالت ميري بسرور: سأعطيك ما تريد، ولكن دعنا نحتفل بعودتك.

قال: كيف نحتفل؟

قالت : نذهب للمدينة لنحتفل، وأختار لك ضحية جميلة بنفسي.

قال: ولكني سبق وفعلت؛ فلنؤجل ذلك لوقت آخر.

لم يظهر عليه شيء؛ فقد كان يعرف أنها ستفعل ذلك، وتدرب على الرد جيدًا؛ فلم تشك في الأمر، وجلست تتحدث معه؛ لتزيل ما علق بنفسه من تلك الحادثة، استمع إليها محتفظًا بابتسامة هادئة، جعلتها تعرف أن كل ذلك صار ماضيًا، ولا ينبغي ذكره ثانية، وأسعدها ذلك؛ فها هو طفلها يعود إليها، فهو لها وحدها، ولن يكون لغيرها مهما حدث.

مرت الأيام، لم تشك ميري في صدقه؛ فهو لم يحتَجْ للكذب يومًا ليعرفه الآن، لم يخطر ببالها أن يكون وجد جده، وفك لعنة نوال؛ فذلك أكبر مما تتصور، إنها صارت مغرورة بذكائها كل يوم أكثر من سابقه؛ فبعد تخلصها من ليز ودراكولا شعرت أنها أخذت قوتهما، وصارت أقوى من أن تُهزم، وزاد لديها هذا الإحساس بعد قتلها لجيمس وروز، ثم عندما جاء الدور على الصغير لتقتله لم تعد تريد إثباتًا، ووجدته أصغر من أن يثبت لها شيئًا، أتخذته أنيسًا لها، لم ترِده خادمًا، ولكنها أرادته دليلًا حيًا على انتصارها.

ربّته ليكون وحشها الأليف، كانت في البداية تراقبه وهو يقتل فرائسه، وتشعر بنشوته تسري في عروقها، ولكن بعد أن مرّ الوقت صارت تهتم أكثر بكل أنواع التعاويذ التى تجعل عمرها يمتد ويصل للأبدية، ولكن كل التعاويذ مؤقته مهما طال وقتها؛ لذا كانت شديدة الانشغال بمواعيد جرعاتها وتركيب تعاويذاتها؛ فلم تعد ترافقه، وتركته بعد أن اطمئن قلبها إلى أنه صار كما خططت، ولن يتركها.

عادت نوال وسوزان من زيارة سرينا يحملن حقائب كثيرة، حملها منهما ألبرت، ووضعها في الغرفة التى خصصوها للمعمل.

أخرجت نوال معدات وأنابيب زجاجية مختلفة الأشكال والأحجام، وأجهزة غريبة لم يرَها ألبرت من قبل؛ فهو لا يعرف إلا مزرعته، وما يعرضه التلفاز.

قال ألبرت: هل حان الوقت لتنفيذ الخطة؟

قالت نوال: لا، إنني سأقوم بتجربة التركيبة أولًا قبل أن ننفذ.

قال ألبرت: هل سيأخذ ذلك وقتًا؟

قالت نوال: ليس طويلًا.

قال ألبرت: ألم تفكري كيف سنجعلها تشربه؟

قالت نوال في ضيق؛ فاستعجال الأمور سيربكهم:
لا ينبغي أن أفكر في أكثر من التركيبة الآن، وإلا فسدت، ولم يعد للخطوة التالية معنى.
قال ألبرت عندما شعر بأنه ضغط عليها: لن أزعجك ثانيًا، ولكني لم أفهم مثل تلك الأمور، ولم أحتَج لها قبل اليوم؛ فكل ما فكرت فيه طوال حياتي هو كيف أجد من قتلَت أبي؛ لأقتلها، ثم نسيت ذلك، وعشت حياتي، ولكنها لم تنسَ وعادت لقتل ابني وحبيبته؛ فلم يعد لديّ ما ينسيني ثأري منها.
قالت نوال، وهى تربت على يده: فكر في سوزان، وحفيدك، وأنا، ألسنا نكفيك؟
قبل ألبرت يدها، وقال: إنكم ما يجعلني أتحمل البقاء في هذا العالم البارد الذي لا يطاق.
كانت سوزان تجلس أمام التلفاز، وقامت تطمئن على ما يفعلونه؛ فسمعت ذلك الحديث، لم ترد التدخل فيه، فعادت تجلس أمام التلفاز تجاهد دموعها التى غلبتها بعضها، ولكنها تماسكت حتى لا تزيد همه.
كانت الشمس قد غابت؛ فخرج ألبرت يعمل في الحديقة، ويرعى حيواناته في صمت.
ظلت نوال في المعمل من أمس حتى صباح اليوم التالي إلى أن غابت الشمس ثانية، ولم تنتبه لسوزان التى كانت تراقبها، وهي في الصالة من خلال الباب المفتوح، كانت تراها منهمكة في وضع أشياء على بعضها، وتسخين البعض، وتبريد البعض الآخر.
كان الخوف يملأ المكان... خوف الفشل، وخوف المواجهة، لم تواجه نوال مشاكلها من قبل، بل هربت منها طوال حياتها، وكذلك ألبرت لم يواجه مشاكله حتى، ولو توهم أنه بعدم الاختباء قد فعل شيئًا جريئًا إلا أنه في الحقيقة كان

أكثر خوفًا من البقاء وحيدًا؛ لذا كان يتخفى بين الناس.
كانت سوزان تنظر لنوال، ثم تخرج ترى ما يفعله ألبرت، شعرت بضعفهما، وخوفهما الذي يجاهدان بأقصى طاقتهما؛ ليخفيانه حتى عن أنفسهما.
حضر حفيد ألبرت، ولم ينتبه له ألبرت ولا نوال؛ فقد كانا مشغولين عمّ يدور حولهما، جلس بجانب سوزان، وقال: يبدو عليهما الانهماك في العمل.
قالت سوزان بابتسامتها الوديعة: نعم، فهذا أفضل لهما، أخبرني كيف حالك؟
قال: لقد فعلتُ كل ما خططنا له، وأردتُ أن أعرف متى وكيف سأعطي ميري المصل؟
قالت سوزان: يبدو أن نوال ستتم الأمر قريبًا.
هبت عاصفة أدخلت بعض أوراق الشجر والتراب إلى المنزل الذي تعبت في ترتيبه سوزان؛ فقامت في غضب، وكأنها تهم أن توبخ الرياح على فعلها الطائش، وصرخت في ألبرت بلهجة آمرة: ادخل ألبرت؛ فالجو سيء وحفيدك هنا.
دخل ألبرت واحتضنه، وقال: كيف حالك؟ وكيف تسير الأمور؟
قال: جيدة، كل شيء تمام، لا ينقصنا إلا الخطوة الأخيرة.
سمعوا طرقات خفيفة على الباب، تعجب الجميع؛ فلا يوجد أحد هنا يعرفهم بعد، فتحت سوزان الباب، ودخلت شابة إلى وسط الغرفة دون أن تستأذن أو تتكلم، أغلقت سوزان الباب، وقالت في نفاذ صبر:
ماذا تريدين يا آنسة؟
ولكنها لم ترد بل أخذت تبحث في المكان بعينيها وفتحت باب الحجرة، كانت تفتح الأبواب بإشارة يدها؛ لذا عرفت سوزان من تكون، وجمدها الخوف.
كان ألبرت وحفيده في الحجرة يشربان معًا زجاجات الدم التى أعدها ألبرت، ويتحدثان حينما دخلت الشابة.

وقالت: ها أنت هنا، كنت أبحث عنك في كل مكان.
وقف الرجلان، ولم يجد هو ما يقوله، ولكن ألبرت نهرها قائلًا:
مع من تتحدثين بتلك الطريقة؟ من هذه الفتاة يا سوزان؟
قالت الشابة: ألن تخبرهَم من أكون؟
قال في ارتباك؛ فقد فشلت كل الخطة بسببه: إنها ميري يا ألبرت.
سكت ألبرت قليلًا، وهو يتأملها بعينين قاسيتين ذكرتها بعيني دراكولا؛ فارتعشت قليلًا، ولكنها تخلصت من نظراته بالتركيز على هدفها الذي جاءت من أجله، وقالت له بلهجة آمرة: هيا بنا.
قال باندهاش: إلى أين؟
قالت ميري: إلى قلعتنا.
قال وقد أحس بخوفها من ألبرت؛ فهي تريد الهروب: إنه جدي، ألا تعرفينه؟
قالت ميري، وهي تتراجع للخلف بحذر: أعرفه، ولكنه لا يعرفني على ما أظن.
قال ألبرت: إنكِ مخطئة؛ فأنا أعرفكِ جيدًا.
ظلت تتراجع ظنها ستهرب؛ فلم يتقدم، ولكنها أمسكت سوزان التي لم تتحرك من مكانها، وقالت: إذا لم تأتِ معي سوف أقتلها.
قال: سآتي، ولكن اتركيها.
قالت ميري: حسنًا، خذ هذه الزجاجة، واشرب أنت وألبرت منها أولًا.
قالت سوزان: لا تشربا شيئًا، إنه وقت المواجهة... ألبرت، لا تخشَ شيئًا، ولا حتى موتي؛ فقد عشتُ معك عمرًا أجمل من أبديتها التعيسة، انهِ الأمر يا حبيبي.
قال حفيد ألبرت لميري في غضب: أتظنين أننا أغبياء إلى هذه الدرجة؟
وقبل أن ينهي كلامه كان ألبرت خلف ميري مستعدًا للانقضاض عليها، ولكنها كانت تعرف أنه سيفعل؛ فتلت تعويذة اختفت بها هي وسوزان.

شعر ألبرت برغبة في تدمير كل شيء؛ فخرج للغابة، وأخذ ينقض على كل أنواع الحيوانات التى قابلها.

قالت نوال: ألن نفعل لهما شيئًا؟

قال في ارتباك: لا أعرف، لقد فسدت كل الأمور منا، ليتني لم آتي.

قالت نوال: لا داعي للندم، يجب أن نفكر سريعًا.

قال: إنني لا أجد فائدة من البقاء هنا؛ علينا العودة للقلعة.

قالت نوال: حسنًا، اجمع معي المعدات بحرص.

قال: هل انتهيتِ من التركيبة؟

قالت نوال: نعم، ولكني لم أجربها بعد.

قال: وكيف تجربينها؟

قالت نوال: يمكن أن تحضر لي فأرًا مثلًا.

قال: حسنًا، سيكون أول شيء أفعله عندما نعود للقلعة.

أخذا يجمعا أشيائهم، ثم جلسا؛ لانتظار ألبرت، عاد قبل الشروق بلحظات، كان يبدو رثًّا، ذكره بنفسه عندما علم بأمر موته، فكر أن ألبرت يحب سوزان حقًا.

جلس ألبرت بجانبهم دون أن ينطق بكلمة، ظل الثلاثة صامتون، وبعد مدة نامت نوال على كتفه، نظر لهما ألبرت، وقال:

لا تتركها، إنها قلبك الثاني؛ فالذي في جنبك لا يعمل.

قال: لا تيأس؛ سنجد حلًا، أنا متأكد.

قال ألبرت: أي حل غير موت ميري فاشل.

قال: سنرى ما يمكننا فعله؛ فأنت تعرف جيدًا أننا لن نستطيع قتلها إلا بالحيلة.

قال ألبرت: نعم، مثلما فعلت بأبي و ابني والجميلة روز.

كان صوته يقطر ألمًا.
غابت الشمس، وحمل كل من ألبرت وهو صناديق المعدات، والتركيبات مع تحذيرات مشددة من نوال للمحافظة عليها.
لم تمضِ دقائق، وعادا لحمل باقي الحقائب، حمل ألبرت حقائب سوزان في حزن، وحمل هو باقي الحقائب وذهبا.
قالت نوال: لقد عدتما بسرعة كبيرة.
التفتت، فسمعت ضحكة مجلجلة، ووجدت ميري و اقفة خلفها، فقالت نوال: أنت...
قالت ميري بعين جامدة: أتظني أنني أريد تلك العجوز، أنتِ ما أريد.
قالت نوال: إنك لا تريدين أحدًا بعينه، إنكِ تريدين عدوًا يروي الكراهية عطشك للانتقام.
ضحكت ميري، وقالت: دعينا من هذا الهراء، وأخبريني كيف فككتِ اللعنة؟
قالت نوال: لن أخبركِ شيئًا.
قالت ميري: إنكِ لا تتعلمين.
و اقتربت منها، فقالت نوال: بل أنتِ التي لا تتعلمين.
وأخرجت زجاجة من جيبها ورشتها عليها، تفاجأت ميري بذلك الفعل الصبياني، وقالت: إنكِ حقًا حمقاء.
لم تلبث أن شعرت بدوار، ولكنها لم تشأ أن تشعر نوال بضعفها؛ فقالت:
أخبريه أن موعدنا في المغارة، يشرب الزجاجة... يأخذ صديقتكم. لا يفعل تموت.
اختفت حين دخلا من الباب، قال ألبرت: ماذا قالت ميري؟ وكيف نجد سوزان؟
قالت نوال: اجلسا، سوف أخبركما كل شيء.

حكت لهما ما دار بينها وبين ميري.
قال: إنها تريدني أنا؛ إذًا فلأذهب وحدي، ولتبقيا سالمين، يكفى ما حدث لكما إلى الآن بسببي.
وقف ألبرت، وقال ساخطًا: لا تكن غبيًا، أن نوال معها حق، إن ميري بداخلها كراهية ستوجّهها لأي شخص يوجد في طريقها، إنها لن تدَع سوزان حتى لو قتلتك، دعنا من هذا، أتُرى قد أثّرت فيها التركيبة؟
قالت نوال: لست متأكدة، ولكنها كانت تنوي أخذي قبل أن أرشها بها على ما أعتقد، وقد تراجعت عن ذلك.
قال: لو أثّرت فيها يمكن أن تبتعد عنا دون أن نقتلها.
قال ألبرت في غضبٍ مكتوم:
ألا زلتَ تحبها بعد كل ما عرفتَ؟ وما فعلَت؟
قال: إنها ربتني على الرغم من كل شيء.
قال ألبرت: إنها خطفتك، واستغلت جهلك بالحقيقة.
قال محاولًا عدم استفزاز ألبرت أكثر: إنني كنت أناقش الأمر معكم فقط، هيا لنعود للقلعة، إن الوقت يتسرب منا.
طارا، حمل هو نوال، وكان كلًا منهم مشغول البال؛ علّه يجد حلًا.
وصلوا للقلعة، قال: سأذهب لميري.
قالت نوال: لا تذهب، إنها تنوي لك الشر.
قال ألبرت: أنا لن أدعكَ تذهب وحدك، لقد أخبرتَني من قبل أننا نحن الثلاثة الحل، إذًا يجب أن نكون مع بعض دائمًا.
ذهبوا الثلاثة لميري، كانت المغارة كعادتها تعمها الفوضى، دخل الثلاثة بحذر يتقدمهم هو، قال: ميري... ميري.

تراجع قليلًا حين وجد سوزان معلقة في الهواء، ويبدو عليها الإعياء، وتحتها سيدة عجوز تقلب في كتب كثيرة أمامها، رفعت رأسها لهم ودققت النظر، وقالت: لقد قلتُ أن تأتي وحدك.

وأشارت لنوال بيدها؛ فارتفعت في الهواء مثل سوزان، وحاولت أن تفعل نفس الشيء مع ألبرت، ولكن عينيه كانت أقوى من قدرتها على التركيز، قالت بصوت مرتعش: لا تفكرا، فعلى الرغم مما فعلته تلك الحمقاء لاأزال أستطيع سحرهما أو قتلهما؛ لذا سنغير قواعد اللعبة، تخبرونى كيف أفك تلك اللعنة، و أترككم تذهبون جميعًا في سلام.

اقترب منها ألبرت، ولكن صرخة صدرت من سوزان أوقفته؛ فقد أدارت ميري يدها في الهواء؛ فأختنقت سوزان، قالت ميري: أنا لا أمزح، إما علاج تلك التعويذة، أو حياتهما.

قال لميري؛ ليصرف انتباهها عن ألبرت وسوزان ونوال: ميري.

التفتَت إليه بحركة سريعة، أشارت لهم نوال أن ميري ربما لا ترى جيدًا، و إنما تتبع الصوت.

قالت ميري: ماذا؟

قال بعد أن ارتفع ألبرت من الأرض: إن أمر التعويذة لا أملك حلّه، إن نوال هي القادرة على ذلك؛ لذا خذيها و اتركيني، إنني طفلك المدلل، ألا تذكرين؟

ظهرت ابتسامة على وجه ميري، وقالت: والبقية؟!

قال: إنني لا أعرفهم، إننى لا أعرف أحدًا سواكِ يا ملاكي.

قالت ميري، وقد أشرق وجهها: اقتل ألبرت إذًا.

قال: ما تأمرين به.

ضحكت ميري، وقالت: ولكنكَ ستموت على أي حال.

قال: لماذا؟

قالت ميري: لقد تأكدتُ من النبوءة، ووجدتُك ستموت سواء بقيَت نوال، أم لا، إن لكَ يوم أو يومين على الأكثر.

قال: ولماذا تخبريني الآن؟

قالت ميري: حتى تكفّ عن اللعب معي.

شعرت ميري بلسعة في رقبتها سرعان ما تحولت لخدر، ولم تشعر بشيء، وقعت سوزان ونوال؛ التقطهما هو قبل أن يصطدما بالأرض، شعر ألبرت بدوار فقد على أثره الوعي، حملهم وعاد بهم على مراحل جميعًا إلى القلعة.

جلس في وجم، وقال لنوال: سوف أموت.

قالت نوال: كلنا سنموت.

قال، وهو يضمها إليه: معكِ حق.

حقنَت نوال ألبرت بمصلها الذي اخترعته علّه يشفيه، ولكن ألبرت أخذ يضعف ويضعف، وظهر عليه العجز؛ فتجعد جلده، وضعف جسمه، جلست سوزان بجانبه تبكي، وقالت: ألبرت عزيزي، أتسمعني؟

فتح ألبرت عينيه ببطئ، وقال: أشرب.

أحضر له كوب من الدماء تذوقه ثم بصقه، وقال: ماء... أريد ماء.

فتعجبوا جميعًا، وأحضروا له كوبًا من المياه، سقته سوزان.

قال ألبرت، وهو يبتسم: ألا تسمعي قلبي يا سوزان؟ ألا تسمعوه جميعًا؟

ضحك وسعل بعدها، وضعَت سوزان رأسها على صدره، وقالت وهى تبكى، ولم تكف عن البكاء: نعم أسمعه، إنه يعمل، اسمعي يا نوال... اسمع يا جيمس.

ضحك ألبرت، وقال: إنني حي، سنموت معًا يا سوزان، لن أحيا وحيدًا بعد أن تتركيني.

قالت سوزان، وهى تقبله: لن أتركك يا حبيبي.

وقف ألبرت، وأسندته سوزان، كانت خطواته بطيئة، قال: أعِدنا إلى البيت؛ فبخطواتي هذه لن نصل بعد سنة.

ضحك الجميع، وقالت سوزان: يمكننا السير ليل نهار.

قالت ألبرت بمرح طفولي: سأرى الشمس أخيرًا.

عاد بعد أن أوصل سوزان وألبرت لبيتهما، ووعدهما بالعودة لزيارتهما مع نوال، وجد نوال جالسة واضعة يدها على خدها، جلس بجانبها، وقال:

ما بكِ؟ لماذا تجلسين هكذا؟

قالت نوال: ما حكاية هذه الساعة، لقد توقفت؟

نظر للساعة في ذهول، ولكنه قال لها بصوت حاول أن يضع فيه كل المرح الممكن حتى لا تعرف ما يحدث:

دعكِ منها، لمَ لا نذهب للشاطئ ما دام الأمر قد انتهى؟

قالت نوال: إن الصباح أوشك على الطلوع، و أنتَ لا تحب الخروج صباحًا.

قال: دعك مما أحب هيا نذهب.

قالت في مرح: حقًا؟!

بشرط.

عبسَت، وقالت: ما هو؟

أن ترتدى الثوب الذى أحضرتُه لكِ.

ضحكت، وقالت: إنه لا يليق بالشاطئ.

قال في حزن مازحًا: حسنًا، لن نخرج.

قبلته على خده، وقالت: دقائق و أكون جاهزة.

جلس ينتظرها شاردًا في كل ما حدث له؛ فها هي النهاية، ما يتعجب له أنه لم يعد يهتم كثيرًا لأمر الأبدية، فكل ما يتمناه أن تنتهي حياته معها.

خرجت، ودارت حول نفسها؛ لتريه الثوب عليها، ضحك لها، كانت مبهجة وفاتنة، تأملها كثيرًا؛ فقالت في خجل: هيا، لقد نفذتُ الشرط.

حملها إلى الشاطئ، كانت الأجواء هادئة في آخر لحظات الليل، قالت نوال في سعادة بالغة: أجمل شيء نفعله أن نجلس نرى شروق الشمس معًا.

قال وهو يداعب شعرها: عديني أن تحبي الشمس مهما حدث.

وما الذي سيجعلني أكرهها؟

لا شيء.

تأملها كثيرًا، قالت: ما الذي يحدث هنا؟ إنك تخفى عني أمرًا ما.

قال: لا شيء، فقط اشتقتُ إليكِ، فقد مضت فترة كبيرة و أنا بعيد عنك.

أرخت عينيها وقالت: إن الشمس ستشرق، يجب أن تنظر هناك لتراها.

رفع إليها وجهه وقبّلها وضمها إليه بشدة، كان يعرف أنه سيتحول لتراب، وتمنى ألا يفارقها إلى هذا الحين.

قالت نوال برفق، وهي تداعب شعره: لقد فوّتُ عليكِ منظر شروق الشمس.

شعر بلسعة حرارة ارتجف لها، أبعدته قليلًا واضعة يدها على صدره، دفعته، وقالت: ما الأمر، إنك ترتجف.

رأت تلألأ دمعة في عينيه، بكت هي الأخرى، وقالت بفرح هستيري: إنه يدق... يدق، ألا تسمعه.

قفز هو الآخر، وقال: قلبي يعمل، إنني حي لم أمت.

أراد أن يتأكد من الأمر؛ فأخذ زجاجة ماء وشرب منها، وقال: لقد زالت اللعنة.

فرحَت نوال، وأخذت ترقص على الرمال، وتجري نحو البحر، لحقها وهو يجرى وراءها داخل الماء يستمتع بالشمس والبحر وحبيبته.

قالت نوال في براءة: هل ستكتسِب بعض اللون إذًا؟

قال ضاحكًا: أظنّ هذا. تمت

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017